حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين
Islamic Jihad Movement
in Palestine

مركز اللغات والترجمة
Translation and Languages
Center

مآثر غزة القتالية

هل تشكل إرهاصات مدرسة عسكرية فلسطينية؟

شباط 2015

مركز اللغات والترجمة
حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين
قسم الدراسات

تقديم

يشهد تاريخ غزة أنها كانت حصناً منيعاً في منطقة من أكثر بقاع العالم توتراً، حيث وقفت في وجه الغزوات التي استهدفت المنطقة في جميع الحقب التاريخية. وقد هزمت بصمود أبنائها جيوش الغزاة، وتحطمت على أبوابها الأساطيل، وقهرت القادة والجحافل المدججة بالأسلحة، ولم يستسلم أهلها رغم تعرضهم لأقسى أنواع الحصار والظلم، ولم تنل من عزيمتهم كل محاولات الإخضاع والسيطرة، وظلت غزة شامخة وظل أهلها يقاومون أعدائهم بإيمان راسخ وإرادة لا تلين، وكلما هوى شكل من أشكال المقاومة كانوا يبتكرون بإبداعهم شكلاً جديداً من الصمود والمقاومة، مما جعلها عقبة كأداء في وجهة الطغاة وموجات الغزو في جميع الحروب التي فرضت على المنطقة والأمة، والتي كان آخرها الغزوة الصهيونية منذ مطلع القرن العشرين، حيث تصدت غزة للعصابات الصهيونية التي استهدفت فلسطين، ثم قاومت الاحتلال وقطعان المستوطنين الصهاينة الذين لم يتحملوا البقاء داخل قطاع غزة، حيث حولت المقاومة حياتهم إلى جحيم لا يطاق، إذ أجبرهم أهل غزة الصابرون والمجاهدون على الهروب إلى خارج القطاع. وعلى الرغم من استمرار قوات الاحتلال والعصابات الصهيونية في شن العدوان على قطاع غزة في ظل حصار شديد وظالم، إلا أن أبناء غزة تمكنوا من اجتراح الخطط وابتكار الأساليب التي تمكنهم من تطوير أدائهم في مواجهة وحدات الجيش الذي يعد من أقوى جيوش المنطقة، وتقف وراءه جميع قوى الشر والعدوان في العالم وفي مقدمتها الولايات المتحدة الأمريكية. وقد اعترف قادة الكيان الصهيوني أن غزة أعيتهم وأفقدتهم كل حيلة للسيطرة عليها والقضاء على مقاومتها التي أحبطت كل الخطط والمؤامرات التي حيكت ضد الشعب الفلسطيني، وشكلت مثالاً يحتذى لمقاومة الاستعمار وقوى الاستكبار العالمي. فهل يمكن استخلاص الدروس من تاريخ غزة المقاومة، وهل يمكن الاستفادة من التطور الذي حققته المقاومة من خلال أجنحتها العسكرية في جولات الصراع الأخيرة، من أجل إيجاد مدرسة عسكرية فلسطينية خاصة في مواجهة المشروع الصهيوني البغيض؟....

مركز اللغات والترجمة
أبو جهاد طلعت
شباط 2015

موجز تاريخ غزة العسكري

تعد مدينة غزة من بين أقدم مدن العالم ذات الأهمية الجغرافية الاستراتيجية. وإحداثياتها: (N 31.31.21) و (E 34.27.12)، وتعتبر بوابة آسيا ومدخل أفريقيا بحكم الموقع الجغرافي بين مصر وبلاد الشام، وكذلك بين آسيا وأفريقيا. وكانت غزة عبر التاريخ نقطة مواصلات ومحطة قوافل، وبالتالي مركزاً تجارياً عالمياً. كما أنها تقع على أبرز الطرق التجارية في العالم القديم، وهو الطريق البادئ من جنوب شبه الجزيرة العربية، حيث تجتمع تجارة اليمن والهند وتسير نحو مكة والمدينة والبتراء ثم تتفرع نحو غزة ودمشق وتدمر، وانطلق منها أيضاً طريق الفرما نحو مصر وطريق الشرق نحو العراق، كما كان للمدينة أهمية عسكرية لأنها تصل بين مصر والشام. فإذا أراد ملوك مصر غزو الشام تطلعوا أولاً إلى فتح غزة، وإذا أراد ملوك آشور أو بابل غزو مصر من الشمال حشدوا قواتهم فيها قبل الغزو، فكان الاستيلاء على غزة «يعني السيطرة على طرق الحرب والتجارة بين آسيا وإفريقيا». وبنيت غزة القديمة على تلة ترتفع 45 متراً عن مستوى سطح البحر، يحيط بها سور عظيم له عدة أبواب من جهاته الأربع.

غزة في التاريخ القديم:

أسسها العرب الكنعانيون قرابة الألف الثالثة قبل الميلاد، وسموها غزة. أطلق عليها العرب غزة هاشم نسبة إلى هاشم بن عبد مناف جد الرسول محمد «صلى الله عليه وسلم» الذي دفن فيها في المسجد الذي يحمل اسمه. وقد تبدل اسم المدينة بتبدل الأمم التي صارعتها، فقد سماها المصريون «القدماء» (غازاتو) و(غاداتو) والآشوريون (عزاتي) والعبرانيون (عزة)، وقد جاء في المعجم اليوناني أنها أعطيت في العصور المختلفة عدة أسماء منها (أيوني) و(مينودا) وقسطنديا، ولكن «غزة» احتفظت باسمها العربي الذي ما زالت تحمله حتى هذا التاريخ تأكيداً لعروبتها وأصالتها.

امتاز الساحل الفلسطيني الممتد من رفح جنوبا حتى لواء اسكندرون شمالا بأنه مهد الهجرات العربية التي خرجت من شبه الجزيرة العربية، فاستقرت في الساحل الفلسطيني وبلاد الشام والرافدين مثل اليبوسيين والكنعانيين والفينيقيين والآشورين والآراميين الخ... كذلك شهد الساحل الشرقي للمتوسط بداية ونهاية صراعات عنيفة ودموية للسيطرة على بلاد الشرق، من الهكسوس إلى الفراعنة والفرس، ومن اليونان إلى الرومان والصليبيين والمغول والانجليز، وأخيرا الظاهرة الصهيونية في فلسطين.

وعلى الرغم من أن الأساطيل العربية للكنعانيين والفينيقيين قد جابت المتوسط إلا أنه لم يسجل التاريخ أنهم خرجوا في حروب غزو واستعمار أو فتح خارج بلادهم، لكن التاريخ يسجل أن تاريخ أبناء المنطقة قام على قاعدة الدفاع في مواجهة جيوش الغزاة الذين لم يتوقف زحفهم للسيطرة على المنطقة. وللدفاع عن الساحل الفلسطيني وبشكل خاص غزة فقد أسس الانسان العربي منذ القدم نظرية دفاعية تعتمد على المرتكزات الآتية:-

مرتكزات نظرية الدفاع:

1. الأنفاق:

منذ القديم كرس الإنسان العربي وجوده في المنطقة، من أجل حمايتها من جيوش الغزاة القوية. فقد أقام في الساحل الفلسطيني الجنوبي الممتد من رفح حتى عسقلان وأسدود وبئر السبع، حيث يمتاز هذا الساحل بأرضه الرميلة المنبسطة والخالية من الجبال والغابات، لذلك شيد الانسان العربي فيها سلسلة طويلة من الأنفاق الواسعة والكبيرة والطويلة التي تمتد إلى عدة كيلومترات، حيث كانت هذه الانفاق تمتد كشبكة دفاعية تطاول كل المراكز السكانية وتربطها مع بعضها بعضاً.

فعندما كانت موجات جيوش الغزاة تتقدم نحو الساحل الجنوبي الفلسطيني كان أبناء المنطقة ينزلون عميقاً تحت الأرض، ويختبئون في الملاجئ ويمتصون قوة اندفاع الموجة الاستعمارية، وعندما كان الغزاة ينزلون إلى اليابسة ويستقرون على الأرض، كانت مجموعات المقاتلين العرب تباغتهم في هجمات خاطفة ومنظمة، حتى أن «الاسكندر المقدوني» الذي جاب الأقطار شرقاً وغرباً والذي لم يهزم في معركة، جرح في غزة في معاركه مع أهلها.

ومن هذه الأنفاق التي مازالت موجودة نفق الجامع العمري الكبير في مدينة غزة، حيث يوجد أسفل المسجد نفق كان يتسع ليسير فيه جيش كامل من الفرسان، ويمتد النفق تحت الارض حتى ساحل البحر الابيض المتوسط في منطقة الشيخ عجلين، وتقول الروايات الشفوية أن الملكة هيلانة كانت تتحرك بهذا النفق مع كامل جيشها من الفرسان، وهذا دلاله على حجمه واتساعه وطوله وارتفاعه. وفي الروايات الشفوية أنه في أحد حقول البرتقال في «جباليا البلد» توجد «بيارة حلاوة»، وكان يوجد بداخلها حفرة نفق يخرج منها أربع مداخل باتجاهات متعددة، وأن أحد هذه الانفاق كان يمتد حتى منطقة الزرقاء على عمق أكثر من عشرين متراً، ومن هناك كان اتجاه النفق يسير نحو البحر. وفي منطقة «تل العجول» جنوب مدينة غزة على الضفة الشمالية «لوادي غزة»، حيث المدينة الكنعانية القديمة «بيت جاليم»، عُثر هناك على سور عرضه 2.5 وارتفاعه 50 قدما، وعلى نفق بطول 500 متر.

2. الأبراج والقلاع:

في الساحل الشمالي لفلسطين وبلاد الشام، حيث التضاريس الجبلية الشاهقة والغابات الكثيفة، اعتمد العربي في مواجهة موجات الغزاة على بناء الأبراج والقلاع الحصينة مثل «قلعة الحصن وقلعة المرقب وقلعة صلاح الدين» وتتسع هذه القلاع لعشرات الآلاف من المقاتلين وتؤمن لسكانها الماء والغذاء والأمن لشهور طويلة، وهذه القلاع مزودة بشبكات من الأنفاق تؤمن لسكانها تجاوز أي حصار وإدخال الأغذية والعتاد والأسلحة والفرسان، وكذلك الخروج في هجمات منظمة خلف خطوط العدو الذي يحاصرها لاستنزافه وإرهاقه وهزيمته.

3. الاتصال الآمن ....

أ- الحمام الزاجل:

في زمن خلت فيه التكنولوجيا، وكبرت المساحات وطالت شبكة الطرق. كانت الخيل هي أسرع وسيلة للانتقال والحركة، اضطر الانسان العربي أن يؤمن الاتصال الآمن والسريع بين المركز والأطراف من خلال استخدام الحمام الزاجل، الذي كان ينقل لمركز القيادة تقريراً يومياً عن الأوضاع السياسية والعسكرية والاقتصادية في كل الأطراف المترامية.

ب- الاتصال بالرموز والاشارات :

تبعد قلعة الحصن الموجودة في أطراف السفوح الجبلية الغربية لحمص عن قلعة المرقب الموجودة على سفوح جبال بانياس في محافظة طرطوس على الساحل السوري حوالي 55 كم. وتبعد قلعة المرقب عن قلعة صلاح الدين في محافظة اللاذقية حوالي 50 كم. ورغم المسافة البعيدة بين هذه القلاع، إلا أنها تشكل منظومة عسكرية متكاملة، بحيث إذا شعر المقاتلون في قلعة الحصن أن هناك ثمة غزو قادم يقوموا بإشعال النار البيضاء فوق أعلى قمة لقلعة الحصن.

عمود الدخان الذي يصعد يستطيع المراقب فوق سطح قلعة المرقب أن يشاهده بشكل واضح، حيث ينقل الاشارة إلى قيادته، فإذا أشعلت النار فوق سطح قلعة المرقب يستطيع المراقب فوق سطح قلعه صلاح الدين أن يدرك من لون الدخان أن هناك غزواً قادماً من جهة حمص مما يوفر له فرصه ووقت كافٍ لإعداد جيشه للتصدي للغزو الجديد.

4. النوع في مواجهة الكم..

اعتمدت موجات الغزاة على الكم العددي وعلى الوحشية في مهاجمتها للمراكز والمدن العربية في الساحل والجبل والداخل والصحراء، وفي مواجهة هذا الكم وهذه الوحشية اعتمد العربي في نظريته الدفاعية على الانسان النوعي. في الروايات الشفوية والتاريخية المنقولة عن القائد صلاح الدين الأيوبي والقائد سيف الدين قطز، حيث يُروى أنهم اختاروا لطليعة جيوشهم وحدات خاصة ومختارة من الجند، كانوا يتلقون تدريباً مثالياً صعباً وقاسياً يؤهلهم للعيش والقتال في الظروف الصعبة والقاسية.

غزة في الحقبة الصليبية:

بعد أن استولى الصليبيون على القدس عام 1099 استولوا على غزة عام 1100، وتسلمت عسقلان راية المقاومة وأصبحت جزيرة المقاومة في بحر الفرنجة، لفترة تزيد عن 50 سنة متتالية، وانطلقت منها الحملات المتتالية ضد الوجود الصليبي في فلسطين. وظلت غزة بحوزة الفرنجة حتى تحررت بعد معركة حطين سنة 1187، ولكن ذلك لم يكن نهاية الأمر لأن الأطماع الفرنجية استمرت متصلة بالمدينة. ففي سنة 1239 وصلت حملة صليبية جديدة ودارت معها معركة عند قرية بيت حانون شمال غزة، وهناك انكسر

الصليبيون وهزموا هزيمة نكراء .

عام 1244 تقدمت حملة صليبية جديدة، تصدى لها المسلمون الخوارزميون عند قرية «الحربية» في الشمال الشرقي من غزة، وأنزل بهم جيش صلاح الدين هزيمة سحقتهم سحقاً، وعادت القدس إلى مُلك المسلمين. وحملت هذه الهزيمة المؤرخين الأوروبيين على إطلاق اسم حطين الثانية على هذه المعركة، وفي ذلك يقول المؤرخ أرنست باركر: «إن الانهيار النهائي لمملكة بيت المقدس تحدد فعلاً في معركة غزة 13 جمادى الأول 642هـ الموافق 17 أكتوبر 1244.

ربما الحروب الصليبية حسمت في حطين لكن الاستنزاف المتواصل لمراكز الصليبين ومعركة غزة هي التي مهدت إلى هزيمة ورحيل الصليبيين عن فلسطين وبلاد الشام.

غزة في مواجهة الغزو المغولي:

أول انتصار على الغزو المغولي تم في غزة.

تعرض العالم الاسلامي في القرن السابع الهجري لغزو مغولي من الشرق تزامن مع الغزو الفرنجي من الغرب وحاول التحالف معه، واجتاح المغول بلاد المسلمين كالإعصار الذي لا يقوى على مواجهته أحد، وكانت مدينة غزة هي النقطة الأخيرة التي وصل إليها المغول. عُرف التتار بحروب الصاعقة التي تعتمد على العمل الهجومي والحرب الخاطفة، القائمة على المفاجأة وسرعة الحركة، مستفيدين من حرب الأعصاب. فنشروا الذعر والرعب والخوف في كل مكان وحيثما اتجهت قوافلهم كانت تسبقهم الأقاصيص عن طغيانهم وقسوتهم ومذابحهم.

وترجع أسباب هزيمة المغول في غزة إلى غرورهم بكثرة عددهم وتسليحهم، واستخفافهم بقدرة مقاتلي طليعة جيش قُطز، وإلى نوعية الرجال الذين اختارتهم القيادة العسكرية لقطز، على المستوى الإيماني والقدرات العقلية والبنية الجسدية والنفسية والروحية والعسكرية، وطبيعة التدريب الشاق الذي تدربت عليه هذه الوحدات الخاصة، وطبيعة التسليح المكافئ لسلاح العدو. وطبيعة القيادة التي كانت تعيش مع القاتلين وتتقدم صفوفهم في المعارك.

وتقول الروايات التاريخية أن هزيمة المغول في غزة هي التي فتحت الطريق لهزيمتهم في عين جالوت، وأنه ربما حسم السلطان سيف الدين قطز معركته مع المغول في معركة عين جالوت، لكن الاستنزاف المتواصل لطلائع المغول وهزيمتهم في غزة وعلى طول الساحل الفلسطيني على يد القائد ركن الدين بيبرس، هو الذي مهد للمعركة الفاصلة .

غزة في ظل الانتداب البريطاني على فلسطين:

يبدو أنّ أحد مطامع الإنجليز إبّان الحرب العالميّة الأولى كان احتلال معقل الأتراك العسكري الواقع في غزة وبئر السبع، والذي كان الحصنَ الحصين لجيشهم في جنوب فلسطين. لذا، سرعان ما اتجهت أنظارهم وأطماعهم إلى غزة، ابتغاءَ ضرب مركز الأتراك العسكري والإداري هناك. فقد تولّى

الحملةَ العسكريّة لاحتلال فلسطين الجنرال إدموند اللنبي الذي ما زالت ذكراه تعيش في الذاكرة العربيّة والفلسطينيّة بصورة عامّة، ولم تكن حملة الجنرال اللنبي لاحتلال جنوب فلسطين سهلة المنال، بل واجه هو وجيشه صعوبات جمّة في سبيل كسر شوكة غزة وإخضاعها عسكريًّا. لقد وجه الإنكليز ضرباتهم إلى الجيوش العثمانيّة المتمركّزة في الجنوب، واستطاعوا بدايةً احتلالَ رفح، لكنّهم توقّفوا على أبواب غزّة. حينذاك، عُيّن الجنرال إدموند اللنبي للإشراف على الجيوش البريطانيّة من أجل محاولة احتلال غزّة ومن ثَمّ بئر السبع. إلاّ أنّ أهل غزة والأتراك في ربيع العام 1917 تمكّنوا من صدّ ضربات الإنجليز الموجَّهة، وبذلك فشل الإنجليز في احتلالها في المرّتين الأولى والثانية بعد وقوع الكثير من القتلى في صفوف الجيش البريطاني. لم تكن مهمّة المستعمر الإنجليزيّ سهلةً رغم كلّ الخطط والتحضيرات. فقد خاض الإنجليز وحلفاؤهم معارك عسيرة لإسقاط غزّة، وفشلوا في ذلك في المحاولتين الأُوليَيْن (في بداية العام 1917)، وذلك إثر تصدّي أهل غزة والأتراك لهم ببسالة وقدرة عسكريّة صلبة. فقد خسر الإنجليز وحلفاؤهم في معركة غزّة الأولى (4000) جندي. وفي المعركة الثانية الّتي كانت أعنف، سقط (7000) من الجنود الإنجليز وحلفائهم وقد اعترف اللنبي بقسوة المقاومة التركيّة ضدّ الإنجليز وحلفائهم، أثناء محاصرة غزّة وبئر السبع وفي مواقع أخرى في فلسطين. ولم يستطع الإنجليز بقيادة الجنرال اللنبي احتلال غزّة إلاّ بعد المحاولة الثالثة، وذلك بعد أن ذاقوا مرارة الهزيمة في المعركتين الأولى والثانية. بعد سقوط غزّة، كانت الطريق إلى بئر السبع قصيرة، حيث سقطت في أيدي جنرالات اللنبي بعد فترة وجيزة. وتَذْكر يوميّات اللنبي أنّ الجنرال جون شيه (الذي كان تحت قيادته) هو الذي تولّى احتلال الشريعة ومدينة بئر السبع، حين حاصرها واحتلّها في مساء ال 31 من تشرين الأوّل عام 1917. وبعد سقوط الجزء الجنوبي من فلسطين، أكمل الإنجليز مشوارهم حتّى سقطت القدس في مساء التاسع من كانون الأوّل عام 1917، حين دخلها اللنبي سيراً على الأقدام من باب يافا.

غزة بعد اغتصاب فلسطين أيار / مايو 1948:

كان لأبناء قطاع غزة دورهم الفاعل كباقي أبناء الشعب الفلسطيني في رفضهم وتصديهم للغزاة الصهاينة، الذين ارتكبوا جريمة كبرى بحق الشعب الفلسطيني عام 1948، حيث احتضن قطاع غزة عشرات الآلاف من اللاجئين الفلسطينيين الذي شردوا من بيوتهم، والذين تشكلت منهم الخلايا الأولى للوحدات الفدائية التي تطوعت لمقاومة العصابات الاستيطانية وقوات الاحتلال الصهيوني، وكان قطاع غزة في ذلك الوقت يخضع إدارياً للحكومة المصرية.

التشكيلات الفدائية الأولى في قطاع غزة:

الكتيبة -141 فدائيو مصطفى حافظ:

لم تكن نكبة 48 هي نهاية المطاف للفلسطيني الذي حملته رياح الغدر والخيانة والتآمر والارهاب الصهيوني إلى مغادرة قُراه ومدنه نحو غزة والشمال والشرق. فقد أفاق جيل الشباب على ظلام النكبة

والمأساة مما دفعه إلى رفض واقع اللجوء والتفكير بالعودة والانتقام من الصهاينة. بالمقابل وخوفاً من عودة الفلسطيني إلى قُراه شكل الصهاينة الكتيبة 101 بزعامة الارهابي شارون، التي بدأت بشن غارات على مخيمات ومدن القطاع وخصوصاً اعتداء 25 شباط 1955، وتزامن ذلك مع مشروع شمال غرب سيناء الذي هدف إلى توطين 60 ألف فلسطيني في صحراء سيناء مما أدى إلى قيام أبناء القطاع بانتفاضة طالبوا فيها برفض مشروع التوطين والدعوة إلى تشكيل جيش عربي فلسطيني، حيث حضر الزعيم جمال عبد الناصر إلى غزة وشكل قوات الفدائيين الفلسطينيين والتي تحولت إلى وحدات ثم إلى الكتيبة 141 التي تولى أمرها مدير المخابرات الحربية المصرية في قطاع غزة المقدم مصطفى حافظ، وقد قامت هذه الكتيبة بتنفيذ العديد من العمليات الفدائية داخل الأراضي المحتلة وأرهقت الصهاينة. فقد تمكنت عناصر الكتيبة 141 من قتل نحو 140 صهيوني ما جعلها تؤكد إمكانية توجيه ضربات قاضية للعدو الصهيوني عدا عن ضرورة هذه الضربات، كما حثَّت أعمال هذه الكتيبة أبناء الشعب الفلسطيني على التحرك في هذا الاتجاه، وهذا حدث أيضاً مع كتيبة الاستطلاع 68 التي أسسها محمد خليفة، وأكرم الصفدي، وجلال كعوش في سورية وفوج التحرير في العراق الذي تشكل من 300 جندي و50 ضابطاً من جيش التحرير الفلسطيني الذي كانت نسبه كبيرة منهم من قطاع غزة.

في اجتماع سري عقد في القاهرة مع الرئيس جمال عبد الناصر تقرر إنشاء كتيبة للأعمال الفدائية، واختير لهذه المهمة مصطفى حافظ الذي عُرف بكفاءته وذكائه حتى أنه رُقي إلى رتبة عقيد وعمره لم يتجاوز السنوات الأربع الثلاثين.

سافر مصطفى حافظ إلى غزة وبدأ في تكوين شبكة فدائية واسعه تنتشر في جميع أنحاء الأراضي المحتلة لتواجه اعتداءات قوات الاحتلال ضد الشعب الفلسطيني وطوال عامي55–56 أرعبت عمليات مصطفى حافظ قادة الاحتلال الصهيوني لأنها وصلت إلى العمق وخلف الخطوط وجرت ضد وحدات عسكرية.

عمل مصطفى حافظ على تكوين كتيبة الفدائيين وتدريبهم للقيام بعمليات نوعية خلف خطوط العدو، واهتم بتنسيق الجهود مع الفدائيين الفلسطينيين على الجبهة السورية من خلال الملحق العسكري في السفارة المصرية بعمان صلاح مصطفى.

تكونت الكتيبة من 500 فدائي وكان يرغب في تكوين مجموعات مماثلة في الضفة الغربية، كما أنه عين 95 قائد مجموعة واعتاد أن يجتمع بقيادات المجموعات. ومن أهم العمليات التي نفذتها الكتيبة رداً على قصف غزة بمدفعية الهاون أرسل مصطفى حافظ 400 فدائي في ليلة واحدة فأمرهم بدك مواقع الصهاينة من إيلات حتى تل أبيب وترك لهم حرية اختيار الأهداف.

وكان لمصطفى حافظ طريقة مميزة في إرسال الشباب إلى الأرض المحتلة، بأنه كان يرسل كل فدائي إلى قريته التي تعود أصوله إليها كي ينفذ العمليات فيها، لأنه أعرف بتفاصيل بلدته من غيره، مؤكداً أن التاريخ يبقى حياً في أذهان الناس مهما مرَّ الزمان.

جيش التحرير الفلسطيني:

بعد إنشاء م.ت.ف وتشكيل المجلس التشريعي الفلسطيني الأول، تم تشكيل جيش التحرير الفلسطيني وفرض التجنيد الإجباري على الفلسطيني في قطاع غزة، حيث تدرَّب آلاف الشباب الفلسطيني على السلاح، وخرجت الكلية الحربية المصرية ضباط هذا الجيش النواة العسكرية المدربة لجميع فصائل م.ت.ف بعد النكبة.

عقد المؤتمر الفلسطيني التأسيسي الذي تحول فيما بعد إلى المجلس الوطني الفلسطيني في القدس يوم 28-05-1964 وأصدر قرارته بالبدء فوراً بفتح معسكرات التدريب لجميع القادرين على حمل السلاح من الشعب الفلسطيني رجالاً ونساءً بصورة إلزامية، وتشكيل كتائب فلسطينية عسكرية نظامية وأخرى فدائية، وتزويد هذه الكتائب بمختلف أنواع الاسلحة الحديثة والتجهيزات اللازمة، والسعي لإلحاق الشباب الفلسطيني بالكليات العسكرية في الدول العربية، وتطبيق نظام المقاومة الشعبية والدفاع المدني في صفوف الشعب الفلسطيني، وافتُتح أول معسكر في قطاع غزة في شهر 5-1964، فيما افتتحت الحكومة الجزائرية معسكر تدريب للفلسطينيين. وبُدء بتشكيل وحدات جيش التحرير الفلسطيني في سورية، حيث شكلت قوات حطين (3كتائب مغاوير ووحدات إسناد ودعم) وفي العراق شكلت قوات القادسية وفي مصر قوات عين جالوت وفي لبنان والأردن كتيبة مغاوير وقد تم تعيين وجيه المدني القائد العام لجيش التحرير، وعُين صبحي الجابي أول رئيس لأركان جيش التحرير.

في حرب حزيران 1967 شارك جيش التحرير في معارك القتال ضد الكيان الصهيوني في قطاع غزة، وبعد الحرب طلب وجيه المدني من ضباط جيش التحرير التحول للعمل الفدائي، وطلب متطوعين من بين الضباط واختير من بينهم عشرة ضباط هم فايز جراد، وليد أبو شعبان، حسن أبو لبدة، أحمد صرصور، يحيى رفيق عكيلة، صائب العاجز، عمر عاشور وبرجس ديب احجير. وقد انتقلوا إلى الأردن لكي يلتحقوا بقوات الداخل التي يقودها وليد أبو شعبان وحسين الخطيب ونمر حجاج، وبذلك تشكلت مجموعات قوات التحرير الشعبية

في قطاع غزة تولى قيادة قوات التحرير العميد حسين الخطيب وقاد الأركان والعمليات عبد القادر أبو الفحم وزياد الحسيني والبصيلي وعبد المجيد نوفل، وقد امتدت التجربة العسكرية لقوات التحرير الشعبية إلى عام 1972، وإلى جانب قوات التحرير تحولت حركة القومين العرب إلى العمل الفدائي تحت عنوان الجبهة الشعبية. ومن أبرز القيادات العسكرية التي قادت تجربة الجبهة الشعبية جيفارا غزة وكامل العمصي، وقد شاركت المجموعات العسكرية للجبهة الشعبية مع مجموعات قوات التحرير الشعبية في الكثير من العمليات العسكرية المشتركة، كما شاركت بعض مجموعات فتح في عمليات المقاومة.

امتازت التجربة العسكرية لقوات التحرير الشعبية بأنها في ظل الاحتلال كانت تحرر غزة ليلاً والعدو يعيد السيطرة عليها نهاراً كما قال وزير الدفاع في جيش الاحتلال موشيه دايان، وامتازت العمليات بكثافتها، حيث ذكر أن عبد القادر أبو الفحم يسمى بـ أبو المئة عملية، وأن هذه العمليات اعتمدت أسلوب

حرب العصابات القائم على مبدأ اضرب واهرب، وكانت الأسلحة بسيطة لا تتجاوز الرشاشات الخفيفة والألغام وقاذفات B2 والقنابل اليدوية .

وعلى الرغم من أن الثقل الأساسي لهذه التجربة اعتمد على أبناء القطاع المحاصر والأسلحة القليلة، إلاّ أن إخفاق التجربة راجع لتحكم قيادة المقاومة في الخارج بموضوع التمويل وامتلاكها القرار الأول والأخير في التجربة. ورغم أن العمليات العسكرية لهذه التجربة بدأت بالانحسار والتراجع بعد عام 1972 إلاّ أن روح التضحية والفداء التي امتاز بها عيسى أبو لغد ورفيق السالمي، تقدمت لتجدد التجربة في نهاية السبعينات وبداية الثمانينات، وتركت بصمة الجيل الجديد الذي يتوق للمقاومة والحرية.

غزة تحت الاحتلال الصهيوني بعد عام 1967

بعد عدوان حزيران 1967 حققت قوات الاحتلال الصهيوني فوزاً عسكرياً ملموساً على العرب، أدت نتائجه إلى استيلاء سلطات الاحتلال على مساحات واسعة من الأراضي العربية، حيث اشتملت على قطاع غزة الذي عاش أهله ظروفاً قاسية تحت الاحتلال، إذ فُرضت على أبناء القطاع قوانين أمنية وعسكرية منعتهم من العمل بحرية وقيدت حركتهم، فانتقل عدد كبير من المقاومين إلى خارج القطاع نحو الدول المجاورة لفلسطين، حيث شكل الأردن نقطة ارتكاز لفصائل المقاومة الفلسطينية منذ عام 1967 حتى عام 1970، ثم انتقلت بعد ذلك إلى لبنان. وقد شكلت الثورة الفلسطينية من خلال قواها التي تقاوم الاحتلال الصهيوني انطلاقاً من جنوب لبنان، نقطة مضيئة في الظلمة الحالكة التي خيمت على المنطقة العربية منذ بداية الاحتلال. فمنها يستمد الفلسطيني تفاؤله، ومنها سينطلق نحو أرضه المحررة من رجس الصهاينة. إنها باعث الأمل لديه، وعليها علّق أحلامه وتطلعاته. وقد استمر هذا الوضع حتى عام 1982، حيث الاجتياح الصهيوني لجنوب لبنان الذي نتج عنه خروج الثقل الأساسي لفصائل المقاومة من الساحة اللبنانية، مما استدعى الشعب الفلسطيني تحت الاحتلال أن يأخذ دوره في مقاومة الاحتلال ويقرر مصيره بيده وبنفسه.

الانتفاضة الفلسطينية 1987

ارتبطت فكرة المقاومة بوجود الشعب الفلسطيني وشكلت أحد المكونات الأساسية لهويته الوطنية. وظلت تتعاظم في مواجهة الخطر الذي يهدد الحضور الفلسطيني منذ بدايات الاستيطان الصهيوني في فلسطين، حيث غدت ثقافة مسيطرة في حياة الشعب الفلسطيني وكفاحه ضد الاحتلال الصهيوني. وقد تعزز مفهوم المقاومة مع ظهور القوى الإسلامية المجاهدة في فلسطين (حركة الجهاد الإسلامي وحركة حماس)، حيث اندفع الشعب الفلسطيني بكل فئاته أعزلاً إلا من الإيمان والإرادة، مستخدماً الحجارة سلاحاً في مواجهة آلة الاحتلال العسكرية. وقد تجسد ذلك على أيدي أبناء قطاع غزة من خلال الانتفاضة الفلسطينية عام 1987، التي انفجرت من مخيم جباليا رداً على المجزرة التي ارتكبتها عصابات الاحتلال الصهيوني بحق العمال الأربعة أثناء عودتهم إلى منازلهم في شهر كانون الأول / ديسمبر 1987. وقد عمَّت

الانتفاضة كل أرجاء الضفة الغربية وقطاع غزة، ووصل صداها إلى كل أنحاء العالم، حيث انحفر اسم الانتفاضة في القواميس الدولية. ودامت الانتفاضة مدة ستة أعوام قدم خلالها الشعب الفلسطيني قوافل من الشهداء والجرحى والمعتقلين في سجون الاحتلال. كما أكد الفلسطيني بانتفاضته أن الصراع مع الاحتلال لن ينتهي إلا بتصفية الوجود الصهيوني وزواله من فلسطين.

انتفاضة الأقصى المبارك 2000

اندلعت انتفاضة الأقصى في 28 أيلول / سبتمبر 2000 إثر اعتداء سلطات الاحتلال الصهيوني على المسجد الأقصى الذي دنس ساحاته وزير الحرب الصهيوني شارون، عندما دخلها تحت حراسة كثيفة من الجنود الصهاينة. وقد اتسعت الانتفاضة لتشمل جميع الأراضي الفلسطينية من الضفة الغربية وقطاع غزة إلى الأراضي المحتلة عام 1948. وقد لعب أبناء قطاع غزة دوراً مميزاً في الانتفاضة من خلال تصعيد عمليات المقاومة ضد مستوطنات القطاع وطرق المواصلات المؤدية إليها، حيث تمت مهاجمة معسكرات الجيش الصهيوني عن طريق الأنفاق، وتحولت المستوطنات داخل القطاع إلى أهداف للمقاومة، حيث سيطر عليها القلق والخوف وفقدان الأمن. وقد دامت انتفاضة الأقصى خمسة أعوام استطاع خلالها أبناء غزة أن يجبروا سلطات الاحتلال على سحب مستوطناتهم إلى خارج القطاع، من خلال خطة الفصل التي أعلنها شارون عام 2005، فيما ظلت قوات الاحتلال الصهيوني تحاصر القطاع من خارجه. وبعد خُلو قطاع غزة من المستوطنين وقوات الاحتلال تصاعدت وتيرة العدوان الصهيوني ضد القطاع في محاولة لردع المقاومة وضرب الإرادة الفلسطينية، من أجل تحقيق الأمن للمستوطنات المحيطة بالقطاع. غير أن المقاومة في قطاع غزة أخذت تتصاعد وتطور قدراتها العسكرية التي شكلت تهديداً استراتيجياً للكيان الصهيوني، من خلال الضربات التي وجهتها لجبهته الداخلية. فقد شهدت الأيام الأخيرة للانتفاضة اختراع أول صاروخ فلسطيني في غزة من نوع «قسام» التابع لحركة حماس، وتطورت الخبرة العسكرية للفصائل فصنعوا صواريخ جديدة مثل صاروخ «قدس 4» التابع لحركة الجهاد الإسلامي في فلسطين، وصاروخ «صمود» التابع للجبهة الشعبية، وقامت كتائب شهداء الاقصى الموجودة في قطاع غزة بصناعة صاروخ «أقصى 103»، كما قامت كتائب المقاومة الشعبية بصناعة صاروخ «ناصر». وقد تم قصف المستعمرات الصهيونية المحيطة بقطاع غزة بهذه الصواريخ.

في ظل هذا التطور الاستراتيجي دخل قطاع غزة ثلاث جولات من الصراع مع الكيان الصهيوني الذي شنّ عليه ثلاث جولات عدوانية خلال 10 سنوات، وهي عدوان «الرصاص المسكوب» 2008–2009، وعدوان أبريل 2012 الذي تصدت له سرايا القدس منفردة في معركة «بشائر النصر»، وعدوان «عامود السحاب» في نوفمبر 2012، وعدوان «الجرف الصامد» عام 2014. وذلك بغية القضاء على المقاومة والقضاء على الصواريخ، وترسيخ معادلة ردع قائمة على «هدوء مقابل هدوء». ورغم امتلاك العدو الطائرات والدبابات والغواصات وأحدث جيش في المنطقة إلا أن الجيش الصهيوني وقف عاجزاً مشلولاً أمام إرادة القتال والتحدي الأسطوري الذي وقفه شعبنا مع أجنحته العسكرية. فقد فشلت عملية «الرصاص المسكوب» ولم

تتوقف عملية إطلاق الصواريخ طوال أيام الحرب، وفي الدقيقة الأخيرة لاتفاق وقف إطلاق النار أُطلقت سرايا القدس الصواريخ من القطاع لتعلن أن الكلمة الأخيرة للمقاومة. وفشلت عملية «عامود السحاب» كذلك ولم تتوقف عمليات إطلاق الصواريخ على المدن والمستعمرات الصهيونية مثل عسقلان وأسدود وتل أبيب وبئر السبع، كما فشلت عملية «الجرف الصامد»، حيث ضربت صواريخ المقاومة طيلة فترة الحرب أغلب المدن الصهيونية على طول الساحل الفلسطيني حتى حيفا، وعلى طول العمق الفلسطيني حتى القدس ومطار اللد، وعلى طول النقب الفلسطيني حتى ديمونا. ربما كانت الخسائر البشرية والمادية عالية جداً بسبب الجرائم الصهيونية التي استهدفت الأحياء السكنية المأهولة بالمدنيين. لكن المهم أن «الإسرائيلي» سقط على بوابات الشجاعية وبيت حانون وخانيونس ورفح ولم يستطع أن يتقدم شبراً واحداً إلى الأمام، ولم يستطع أن يجبي من الفلسطيني استسلاماً. فالرعب الفلسطيني أسقط معادلة «الردع الإسرائيلي»، وتلاشت النظرية الأمنية الصهيونية، وأصبح الجيش الصهيوني بحاجة إلى ترميم جديد.

إبداعات المقاومة الفلسطينية في مواجهة

عدوان الجرف الصامد 2014

«الصهيونية مغامرة استعمارية، لذلك فإن نجاحها أو فشلها يعتمد على القوة العسكرية. البناء مهم، وتكلم العبرية مهم. لكن الأهم ويالللأسف هو القدرة على القتال»

فلاديمير جابوتنسكي ١٩٢٣

ينطوي استدعاء الرموز والتسميات في الحروب كما في مجمل الصراعات ولاسيما تلك المشبعة بالأبعاد العقائدية والأيديولوجية، على وظيفة مركزية متعددة المستويات، أقلها تأمين أكبر قدر ممكن من الحشد والتعبئة وتوليد الشعور بالقوة والتفوق وخداع العدو أو الخصم، كحال الصراع العربي الإسلامي مع الكيان الصهيوني لكن في المثال بين أيدينا، فإن تسمية الكيان الصهيوني لحربه الأخيرة على قطاع غزة التي استمرت طيلة واحد وخمسين يوماً ب»الجرف الصامد» تنطوي على أبعاد ومستويات أخرى مفعمة بالدلالات والمعاني والشحنات التعبوية وكذلك التسميات الفلسطينية المضادة الأمر الذي يستدعي بالضرورة الوقوف على أكثرها أهمية لفهم الأبعاد النفسية والاستراتيجية المحركة لهذه الحرب.

البعد الأول، يشير إليه المعنى الحرفي للتسمية فالجرف في الواقع وفي المتخيل الإنساني يدل على الهاوية وليس أمامه إلا أن يبقى أو ينهار وانهياره هو السقوط إلى الهاوية. وهذا يعني أن الحرب الصهيونية ليست سوى محطة أساسية في حروب «البقاء والوجود الصهيوني» حيث يحاول الكيان الصهيوني من خلال المعنى المتخفي في التسمية توفير المناخات النفسية والسياسية الملائمة التي تتيح استحالة التعاطف العالمي وإعادة انتاج صورته كضحية أو بتعبير بعض الصهاينة توفير الشرعية الدولية والشرعية الداخلية للحرب الصهيونية ولأهمية ذلك نشير إلى شهادة أحد السفراء الصهاينة عن حياته المهنية في العقدين الخامس والسادس من القرن العشرين يقول فيها: «كانت مهمتنا حساسة لأنه توجب علينا على السواء أن نقنع العرب بأن «إسرائيل» لا تُهزم وإقناع الغرب بأن «إسرائيل» مهددة بالموت». لكن اليوم تبدو الصورة مختلفة فلم تعُد المسألة مرتبطة بالدعاية لسياسات وتوجهات واستراتيجيات بل هي أعمق من ذلك بكثير وهو أن «الجرف الصامد» كما يقول رئيس شعبة الاستخبارات العسكرية السابق (أمان) مدير معهد أبحاث الأمن القومي عاموس يادلين، قد دارت بتناقض تام مع نظرية الأمن «الإسرائيلية» التقليدية مع أنه يفترض أن تكون مبادئ هذه النظرية في الخلفية وبذلك سقطت الدعامة الأولى في هذه النظرية: «الردع» وكذلك الدعامة الثانية: «الإنذار» و«الحسم» بطبيعة الحال غير ممكن ولم يبقَ من نظرية الأمن «الإسرائيلية» التقليدية إلا دعامة واحدة أضافها دان مريدور في اللجنة التي وقف على رأسها عام 2005-2006 وهي دعامة «الدفاع» وهي الدعامة التي عملت بشكل مناسب في عملية «الجرف الصامد». النجاح

في الدفاع أدى بحسب يادلين إلى الابتعاد عن مبادئ أخرى في نظرية الأمن «الإسرائيلية» التقليدية: المعركة القصيرة والحسم الواضح ونقل المعركة إلى أراضي العدو فضلاً عن أن التقوية غير المناسبة «للدفاع» ومن يادلين أيضاً، أبعدت الكيان الصهيوني عن مبادئ الحرب التقليدية وعن المبادرة والهجوم والتضليل وتركيز الجهد وإخراج «العدو» بتعبير يادلين أي المقاومة الفلسطينية، من حالة التوازن والاستمرارية لكن السؤال: هل ثمة إمكانية لممارسة مُجدية لهذا النمط من الحروب على قطاع غزة؟ كثير من الاستراتيجيين الصهاينة يشككون في إمكانية وجدوى ذلك لما ينطوي عليه من صرف لطاقات الكيان الصهيوني من غير طائل بل وإضافة أعباء كبرى، يقول اللواء «يعقوب عميدرور»، كما تشي تسمية «الجرف الصامد» أن الإدراك الصهيوني يميل إلى تبني المفهوم البيولوجي للحرب وهو مفهوم يقوم على افتراضين: أولهما أن الحرب هي محصلة قانون الحفاظ على البقاء، والصراع من أجل البقاء هو للأصلح الأكثر قدرة على الصمود وأن الشعوب والجماعات تتصارع وتتنافس وتتزاحم لتوفير شروط أفضل لحياتها أو من أجل توفير مكانة أعلى لها بين جماعات البشر في النظام العالمي، كما تستنبط مسألة في غاية الأهمية وهي تخلي العقل الصهيوني عن فكرة أو هدف النصر، وكأن لسان حال الكيان الصهيوني باتت كلمات الشاعر الألماني ماريارنير ريليه: «الانتصار من يتحدث عن الانتصار؟ البقاء هو كل شيء».

لقد تخلى الكيان الصهيوني عن معنى مفهوم النصر الذي يختصر حسب اللواء «عاموس يادلين» باحتلال أراضي العدو وتدمير جيشه واستبداله بمعنى آخر جديد تفوه به وزير الحرب الصهيوني «موشيه يعالون» «النصر أن تدفع الآخر للقبول بوقف إطلاق النار وبشروطك». أي كسر إرادة المقاومة.

وتسمية «الجرف الصامد» تستحضر إلى الذهن أسطورة «المتسادا» الحصن الذي حاصره الرومان، وانتهى بانتحار المحاصرين اليهود. والقصد من وراء ذلك إيهام الرأي العالم العالمي، والرأي العام في التجمع الاستيطاني الصهيوني أن الحرب على قطاع غزة هي من نمط حرب اللاخيار (ابن بريراه) وليس كما هي الحروب السابقة على المقاومة الفلسطينية كحرب اجتياح لبنان عام 1982، أو حرب تموز 2006، حيث أُدرجت في خانة حروب الخيار.

أما البعد الثاني في الأهمية في تقديرنا، من وراء إطلاق تسمية «الجرف الصامد» على الحرب الأخيرة على قطاع غزة فينبع من عمق رغبة الشعور الصهيوني في تأسيس «الفردوس الأمني الصهيوني». المؤسس على أطروحة «نهاية التاريخ» وهي مقولة مركزية في الفكر الصهيوني مثلما هي مقولة مركزية في الفكر النازي. وفحواها: أن التاريخ بكل ما يحويه من تركيب وبساطة وصيرورة وثبات، وشوق وإحباط ونبل وحساسية وفق تعبير المفكر المصري الراحل د. عبد الوهاب المسيري، سيصل إلى نهايته في لحظة ما، فيصبح سكونياً تماماً خالياً من التدافع والصراعات والثنائيات والخصوصيات. إن كل شيء سيرد إلى مبدأ عام واحد يفسر كل شيء، وسيسيطر الإنسان (هنا الصهيوني) سيطرة كاملة على كامل بيئته ومحيطه الاستراتيجي» وعلى نفسه وسيجد حلولاً نهائية حاسمة لكل مشاكله وآلامه (أي الكيان الصهيوني). بمعنى الاستجابة الناجعة الناجزة للتحدي الأخير.

وفي البعد الثالث نلحظ أن تسمية «الجرف الصامد» تبدو بمثابة فكر صهيوني نحو خيار ثالث بين خيارين، سبق أن تبناهما الفكر الاستراتيجي الصهيوني، لكن من غير أن يتخلى عنهما على مستوى التفكير النظري.

الخيار الأول هو خيار «الخيار الأخير» وفق تعبير الصهيوني «ديفيد كيمحي» وهو عنوان مذكراته ويعني فرض السلام الصهيوني على الأمة العربية الإسلامية والشعب الفلسطيني على وجه الخصوص، وذلك على غرار السلام الروماني. الخيار الثاني هو «خيار شمشون» الخيار النووي الصهيوني «علي وعلى أعدائي» على الرغم من وجود أسلحة نووية تكتيكية تستطيع أن تدمر مساحة تقارب الـ250كم2 وبالتالي بات استخدام الأسلحة النووية التكتيكية في الحروب إمكانية قائمة من الناحية النظرية وحسب. تجدر الإشارة إلى مساحة قطاع غزة لا تزيد إلا قليلاً عن الرقم المذكور إذ تبلغ الـ(365) كم^2.

نستطيع القول في ضوء ما تقدم أن دوافع تسمية «الجرف الصامد» هو موت الخيار الأول (الخيار الأخير) واستحالة الخيار الثاني (خيار شمشون) لاسيما مع نهاية «الحرب الباردة» انحسرت أهمية الردع النووي في السياسات الدولية بشكل ملحوظ وتزايدت فيه تلك المتصلة بالحرب التقليدية وبالتالي نهاية حالة اليقين الاستراتيجي والوصف الأخلاقي التي سادت في فترة الحروب السابقة مع الدول العربية فالمرحلة القائمة مركبة، مليئة بالتحديات والتغيرات فضلاً عن حقيقة أن الحرب ليست سوى وحش متلون، يغير بشكل منتظم من طبيعته وعليه فإن المنظور بفرض الحاجة إلى تجنب الوقوع في شرك التخطيط للحرب، استناداً إلى آخر حرب قد هيمنت، وإلى اتخاذها معياراً أو نموذجاً إرشادياً للحرب القادمة أو التالية، إذ من الخطأ افتراض أن آخر تحول في طبيعة الحرب سيكون هو ذاته الشكل الذي ستتخذه فيما بعد على النحو الذي كان قد جرى عليه، من غير أن يعني هذا أن الحروب الجديدة لا تحمل في طياتها تشابهات غريبة مع الحروب القديمة غير أن الكيان الصهيوني لم يستطع تجنب هذا المطب. فقد خاض حرب «الجرف الصامد» تقريباً بأسلوب عدوان «الرصاص المسكوب» الذي جرى خلال الفترة من 2008/12/27 – 2009/1/18. ولعل تشابه الأسلوب مرده إلى كون العقل الصهيوني إلى ما أنجز وإلى تماثل الأهداف حيث اتخذ الكيان الصهيوني الهدف الرئيسي لـ«الرصاص المسكوب» تقليص القدرة العسكرية للمقاومة الفلسطينية، وإيقاف الهجمات الصاروخية على المغتصبات (المستعمرات) الصهيونية، وهو ذات الهدف الذي اتخذه ذريعة لشن حرب «الجرف الصامد» مع إضافة هدف تدمير الأنفاق وبالتحديد تلك المشيدة على الحدود بين قطاع غزة وجنوب فلسطين المحتلة عام 1948، وتوصف بالقاموس العسكري الصهيوني بـ«الأنفاق الهجومية».

على المقلب الآخر حضرت البراعة الفلسطينية في موجة الحروب والتسميات الصهيونية من خلال استحضار التعبير القرآني «البنيان المرصوص» الذي ينم عن إدراك الحقيقة ومعنى الحرب باعتبارها مسؤولية الأمة كلها، وكل جموع الشعب. وهي تعبير عياني عن حالة التلاحم العضوي بين المقاومة

الفلسطينية والشعب الفلسطيني في قطاع غزة على وجه الخصوص، وفي عموم مناطق الوجود الفلسطيني في الأراضي المحتلة عام 1948، والضفة الغربية ومناطق الشتات الفلسطيني. كذلك حضرت البراعة الفلسطينية في اعتماد تسمية «العصف المأكول» في وصف مآل ومصير أصحاب الفيل، جيش أبرهه الحبشي، حينما تجرأ على مهاجمة مكة المكرمة لهدم الكعبة المشرفة، حيث تنطوي «العصف المأكول» على تبديد الآمال الصهيونية المركزة على المفاهيم الداروينية (البقاء للأقوى والأكثر تسلحاً) وفي بناء الفردوس الصهيوني.

وبالانتقال من صراعات الرموز والتسميات وما تنطوي عليه من دلالات ومعاني إلى مسار الواقع السياسي والعسكري لحرب «الجرف الصامد»، فإن أول ما يلفت الانتباه هو الاستثمار الصهيوني لحالة الغياب العربي عن مسرح الصراع مع الكيان الصهيوني. وحالة الغياب لا تقتصر فقط على حالة الحرب، أو حتى التسوية السياسية، وإنما أيضاً تشمل خيار اللاحرب واللاسلم بما تعنيه من وقف الإذعان لأحكام الواقع، وفي الوقت عينه عدم امتلاك القدرة على تحدي هذه الأحكام. تجدر الإشارة إلى أن حالات الغياب التاريخي التي تعتري الأمم في بعض اللحظات من تجاربها كما يقول أ. محمد حسنين هيكل، ليس فراغاً. فهناك فارق بين الغياب والفراغ. ففي حالة الغياب، فإن هناك دائماً إحساساً بأن كل غياب تعقبه عودة بصرف النظر عن المواقيت. وهكذا فإن حالة الغياب كثيراً ما تكون فرصة ملائمة لتهيئة ظروف العودة وشروطها بما فيها: إلى أين العودة؟ ويصبح الغياب في هذه الحالة عملية احتكاك وتفاعل مع الأفكار ومع احتمالات لم تظهر بوادرها بعد، وهي مفتوحة لمختلف العوامل والمؤثرات، وفي هذه الحالة تدخل إلى الساحة توجهات متعارضة لا تحدث فرقعة، لأن العملية تكون حتى الآن، عناصر كيمياء تتخلق داخل عقول الناس وفي فكرهم، تدور حول فكرة العودة وأشكالها وسبلها. ولعل أجلى مظاهر هذا الغياب هو التحول في أولويات الشارع العربي. وهو ما أفاد به استطلاع رأي أجراه المركز الدولي للمعلومات في صحيفة السفير البيروتية في شهر آب عام 2014 خلال فترة الحرب الصهيونية (الجرف الصامد) على قطاع غزة واقتصر الاستطلاع على الساحة اللبنانية وهي ساحة مستقرة نسبياً بالمقارنة مع غيرها من الساحات في المشرق العربي وتبين بموجبه أن 48% من المستطلعة آراؤهم في لبنان يقولون أن الخطر الأول هو المنظمات «الإسلامية المتطرفة»، و28% الكيان الصهيوني وفي البيئة الحاضنة للمقاومة في لبنان فإن 61% يعتقدون أن الخطر الأكبر يأتي من المنظمات المتطرفة. الغياب الأكبر في فترة الحرب الصهيونية الأخيرة على قطاع غزة كان الغياب المصري وبصرف النظر عن السياسة المصرية الجارية فإن أسباب هذا الغياب لابد من الوقوف عليها ولو باقتضاب والتركيز على الغياب المصري يعود إلى صلة مصر بالقطاع وارتباطه بمحددات الأمن القومي المصري، فضلاً عن الجوار الجغرافي. وثمة من يقول «أن الجغرافيا أقوى من التاريخ وهي التي صنعت الماضي وستحكم المستقبل». والأسباب الجغرافية لهذا الغياب يلخصها فيلسوف الجغرافية المصرية، صاحب موسوعة «مصر عبقرية المكان» الراحل د. جمال حمدان، إذ يعيدها إلى المتغيرات الخطرة التي تضرب صميم الوجود المصري، والمتمثلة في تآكل المكانة

بسبب تراجع دور مصري القومي والإقليمي وأساسه تراجع حدود الأمن القومي المصري. فبينما كان في عهود ماضية تبدأ أو تنتهي من عند جبال طوروس على الحدود الشمالية لسورية تقلصت في فترة لاحقة وتحديداً في فترة سيطرة الإنكليز إلى حواف قطاع غزة. قبل أن تعود إلى مكانتها السابقة بعد ثورة تموز عام 1952 لتتقلص بعد اتفاقيات كامب ديفيد إلى حدود ممري المتلا والجدي، وفق نظرية الجنرال الأمريكي مكسيلمان. وهناك عامل آخر مستجد هو الاكتشافات النفطية والغازية الموعودة في شرق المتوسط وما تفرضه المناقشات بين الدول المطلة على الساحل الشرقي، من بناء تحالفات وصراعات بين الأطراف تفرضها متطلبات تلبية الحاجة للحصول على الحصة المنشودة، ومصر بلا شك منخرطة وربما هي هنا في هذا السياق تجد نفسها الأقرب إلى تحالف «اليونان، قبرص، الكيان الصهيوني» في مواجهة تركيا. هذا فضلاً عن العامل الأيديولوجي تجاه تركيا العدالة والتنمية. بيد أن هذا الغياب العربي ليس كاملاً. فالشعب الفلسطيني بقي حاضراً في ساحة الصراع من خلال تشبثه بخيار المقاومة وعمله الدؤوب والمستمر على توسيع فاعلية هذا الخيار. وهذا تجلى في العدوان الصهيوني الأخير (الجرف الصامد) كما في الحروب السابقة على قطاع غزة. وقد بلغت درجة اللايقين لدى المستوطنين من فعالية، أو لا جدوى الحرب الصهيونية على القطاع في إجهاض أو تقييد فعالية المقاومة على ديمومة الاشتباك مع الكيان الصهيوني. إن معظم المستوطنين يتوقعون حرباً جديدة مع قطاع غزة بعد عام على الأكثر، وأن 28% منهم يودون الهجرة ومغادرة الكيان الصهيوني. جاء ذلك في استطلاع أجري يوم الـ2014/9/24، ونشرته محطة الجزيرة الفضائية. لقد بدأ الجيش الصهيوني في الحرب الأخيرة على القطاع، وكأنه لم يستوعب دروس حرب تشرين عام 1973، إذ بدا حال الجيش الصهيوني في أدائه كما هو، رغم خوضه سلسلة من الحروب ضد المقاومة بعد حرب 1973. فعنصر المفاجأة الفلسطيني يكاد يماثل عنصر المفاجأة العربي في حرب 1973، وكذلك الاستغراق في خداع الذات الصهيونية ولتأكيد ذلك نشير إلى ما جاء في الكتاب الشهير للمحلل العسكري تريفون دوبوي الذي صدر تحت عنوان (السلام المراوغ الحروب العربية «الإسرائيلية» 1947–1974)، من غير أن نغفل الفوارق بين الحربين: «تتمثل الحقيقة التكتيكية المهيمنة في المفاجأة العربية التي تحققت في الهجوم على خط بارليف وخط آلون في الجولان في السادس من أكتوبر 1973 وقد استفاد العرب على كلتا الجبهتين من الاستراتيجية الكاملة والمفاجأة الاستراتيجية تقريباً. كانت المفاجأة الاستراتيجية هي ثمار تخطيط ماهر وأسلوب الخداع الذي انتهجه السوريون، بالإضافة إلى خداع الذات الإسرائيلي...».

لقد حصل ذلك على الرغم من تحول المنطقة العربية الإسلامية إلى مسرح لتطبيق تقنيات جديدة ارتبطت بالطبيعة المتغيرة للحرب، في أعقاب فترة ما بعد الحرب الباردة، خصوصاً بعد أحداث 2001/9/11، حيث كانت للمنطقة نصيب كبير في تطبيق متغيرات جدية في الحروب، من قبيل مبدأ الحرب الاستباقية أو مكافحة التمرد». ومعنى ذلك أنه رغم الاستغراق الصهيوني في الحديث عن الحروب والتحديات الجديدة إلا أنه لم يخرج بعد عن النمط المألوف من قواعد الحرب القديمة. وهذا ما يجعل

النصر الصهيوني متعذراً في أي من الحروب التي خاضها بعد عدوان حزيران 1967، رغم قوته التدميرية العاتية، وارتفاع منسوب قدرته على القتل. فنابليون بونابرت، كما قال العسكريون، لم ينتصر نابليون في معاركه إلا بعد أن كسر كل القواعد القديمة في الحروب. القواعد التي يقاتل عليها أعداؤه، كسرها وتخلى عنها، عن النمطية، فانتصر بذلك على جيوش أعدائه إلى أن جاءت معركة (واترلو) عام 1815، حيث تعلم منه أعداؤه هذا الفن فانتصروا عليه. يُستدل من الحروب المتواترة على قطاع غزة، ابتداءً من حرب (الرصاص المسكوب) نهاية عام 2008، وحرب (عمود السحاب) عام 2012 وحرب (الجرف الصامد)، عام 2014، أن فكرة الحرب الخاطفة أو الصاعقة لتحقيق الانتصار او الأهداف الصهيونية المحدودة أو غير المحدودة قد تلاشت وحلت بدلاً عنها الفكرة العسكرية الروسية: فكرة الانتصار بالمعارك المتتالية. ويبدو أن الكيان الصهيوني قد سلم بهذه الحقيقة كما يشي قول وزير الحرب الصهيوني «موشيه يعلون» في كلمته «العبر المستخلصة من عملية «الجرف الصامد»»: «أنا أتذكر الحنين الموجود لانتصار «الأيام الستة» وأعود وأكرر دائماً ان انتصار حرب «الأيام الستة» الذي شهد تدمير القوة العسكرية للعدو بشكل عظيم لم يؤد إلى الهدوء إلا لفترة محدودة جداً. فقد جاءت حرب الاستنزاف وجرت بعد فترة قصيرة من الانتصار الرائع في حرب «الأيام الستة». وإذا ما كنا نريد الحديث عن واقع «إسرائيل». يكون من الواضح فيه أن الصراع لم يحل، وكنا نرغب في أن نبعد المواجهة القادمة في كل الميادين إلى أبعد نقطة ممكنة فإننا نجد أن حرب «الأيام الستة» لم تقدم لنا ما نريد لفترة طويلة». وقد لخص هذه الرؤية الرئيس السابق لشعبة العمليات في الجيش الصهيوني، «إسرائيل زيف» وفق الآتي: «إن كل النظرية القتالية الخاصة بنا مبنية على حرب «الأيام الستة»، ويضيف: «إن ما نشأنا عليه هو أن كل شيء يمكن حله عن طريق حركة القوات والاحتلال، وهذه الحركة والاحتلال التي كانت صحيحة في زمانها تصبح بنظرة تاريخية، أنها إشكالية جداً فقد عرفنا كيف نحتل، ولكن ما الذي علينا فعله بعد ذلك؟». واقع التفكير السياسي العسكري في الكيان الصهيوني اليوم يشبه في حدود ما واقع بريطانيا قبيل الحرب العالمية الأولى، الذي أشار إليه ونستون تشرشل في مذاكراته عن الحرب العالمية الأولى 1914–1918، من خلال سرده القصة الآتية: أنه عندما كان ضابطاً شاباً في الجيش الانكليزي عام 1895 دعا أحد كبار رجال السياسة في ذلك الحين سير «وليام هاركورت»، إلى بيته لتناول العشاء وأثناء المأدبة انطلق سير وليام في الحديث مع ضيوفه معبراً عن أفكاره السياسية كرجل من رجالات العصر الفيكتوري، عندما كانت بريطانيا الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس قال السياسي العجوز: «أن كل شيء استقر على ما هو عليه، وهكذا سوف تمضي الحياة». تشرشل الشاب تعجب لهذه الرؤية وألقى بسؤال يبدو ساذجاً في غابة السذاجة فسأل سير وليام: وماذا بعد؟ فنظر الرجل إليه في دهشة وقال يا عزيزي تشرشل إنني بعد تجاربي الطويلة في الحياة وقد اقتنعت بأنه لا شيء يحدث أبداً ويعلق تشرشل ساخراً على هذه الإجابة قائلاً: إنه فقد سمع إجابة السير أثناء تلك المأدبة والأحداث تتوالى لتتحدى قول سير وليام بأنه لا شيء يحدث وأن الأحوال مستقرة كما هي عليه وقد خلص تشرشل من ذلك إلى عبارة يمكن تصنيفها في إطار الحطمة التاريخية أو السياسية: «إن من يضع

حساباته على أن كل شيء مستقر ولن يطرأ عليه تغيير إنما يعيش في وهم كبير». وهكذا هي حال الكيان الصهيوني بعد حرب 1967. لكن هل هذا النمط من الحروب (الانتصار في المعارك المتتالية، في مصلحة الكيان الصهيوني. الجواب هو لا. لكن لماذا؟ الجواب يكمن في طبيعة وحقيقة أن حرب الشعوب الضعيفة أمام العدو القوي المدجج حتى أسنانه بكل انواع الأسلحة هي في الأصل طويلة الأمد وهي تعتمد على استراتيجية إطالة أمد المعركة. فكلما طال أمد الصراع والحرب كان ذلك في صالحها، بينما الجيوش النظامية بالعكس من ذلك، تسعى إلى تقصير أمد الحرب، لأنها تعرف أن إطالة أمد الحرب ليس في صالحها أبداً. فإدامة الحرب واستمرارها هو في صالح الشعوب الضعيفة والمقاومة. وهنا بتقديرنا يكمن المأزق التاريخي للكيان الصهيوني. ناهيك عن عجزه عن كسر إرادة القتال لدى الشعب الفلسطيني وقواه المجاهدة. فالنصر هو دائماً مرتبط بكسر إرادة القتال لدى العدو، وحين يعجز الكيان الصهيوني عن تحقيق ذلك يكون الشعب الفلسطيني هو المنتصر في هذه الحروب المتتالية لان القاعدة الحاكمة في حروب الضعفاء ضد الأقوياء، وفق فلسفة ومنطق حرب العصابات، كما صاغها مُنظروها هي: «ما دمت أنت موجود تقاتل فأنت منتصر، لأن الهزيمة هي هزيمة القلب، والمعركة هي معركة إرادات». خصوصاً في ظل تواري وإلى غير رجعة حقبة الحروب الصهيونية الخاطفة (نموذج حرب 1967). وضعف مردود الجزء الذي مازال حاضراً منها في حروب القرن الحادي والعشرين/ «الصدمة والترويع» وفق التعبير الأمريكي وهو تعبير مستقى وبتصرف من مفاهيم العسكرية النازية الألمانية وبالتحديد من كتابات الجنرال الألماني (جودريان) والذي قال: «إن الحرب الخاطفة تبدأ بضربة تقصد بالدرجة الأولى شل أعصاب العدو وإرباكه إلى درجة تدعوه للتخبط في رد فعله بما يشوش تفكيره ويؤثر على قراره. الجدير بالذكر أن مثل هذه الضربات قد فشلت في أن تؤتي أُكلها في قطاع غزة، لأن تأثيرها هو تأثير نفسي قبل أن يكون مادياً وللتأكيد على ذلك نشير إلى ما قاله الجنرال الفرنسي أندريه بوفر لمحمد حسنين هيكل في 1975/9/4، عن حرب حزيران عام 1967: «إني درست معارك 1967، وناقشت تفاصيلها كثيراً مع القادة «الإسرائيليين»، ومنهم موشيه دايان (وزير الحرب آنذاك) واسحق رابين رئيس الأركان في الفترة عينها. وتقديري أن الجيش المصري انهزم في حرب نفسية قبل أن ينهزم في حرب عسكرية. القيادة أُذهلت من ضربة الطيران والقوات في الميدان فوجئت بالتحركات الخاطفة للألوية «الإسرائيلية»، وتفكك الجيش الكبير نفسياً قبل أن تبدا معارك القتال الحقيقية، وذلك تفسير ظاهرة أن الخسائر الكبيرة في المعركة لم تقع إلا بعد صدور قرار الانسحاب من القاهرة». لقد أجبر قطاع غزة الكيان الصهيوني إلى إعادة إشهار الجانب الذي طالما حاول أن يخفيه من العقيدة القتالية الصهيونية طوال العقود السابقة، ربما خوفاً من كبح جماح الهجرة اليهودية إلى فلسطين. ونعني بذلك مفهوم حرب الاستنزاف الذي أدخله إلى قاموس الفكر العسكري الصهيوني ديفيد بن غوريون مؤسس الكيان الصهيوني. والدافع وراء اعتماده يكمن في نظرية بن غوريون النابعة من إدراكه عجز الكيان الصهيوني عن حسم الصراع مع الأمة العربية والإسلامية، كما يظهر من خلال حديثه مع العالم النووي الصهيوني بيرغمان من أن «إسرائيل» لا تفكر في الأصل في

حل عسكري حاسم ينهي عداء العرب لها». والخيار البديل لدى بن غوريون هو حرب الاستنزاف وتنقل الوثائق الصهيونية التي أميط اللثام عنها في السنوات الأخيرة، وفق ما أورده الأستاذ محمد حسنين هيكل في كتابه (عام من الأزمات 2000–2001) على لسان بن غوريون قوله: «نحتاج مع العرب إلى مفهوم الحرب الجديد» ورأيي أنه يجب أن يكون حرب استنزاف متواصلة ونشيطة في كل المجالات. وهذه الحرب يجب أن تكون سياسية ونفسية واقتصادية وعسكرية إذا اقتضى الأمر، شرط أن تعرف أن للسلاح حدوداً في حالتنا مع العرب، ويتكئ بن غوريون في تبنيه لمفهوم حرب الاستنزاف على رؤية استشراقيه سبقه إليها الجاسوس الإنكليزي الموعود «لورانس العرب» ومفادها: أن العرب بالطبيعة نَفَسهم قصير وهم يستطيعون تعبئة جهودهم لفترة زمنية محدودة لكنه إذا طال الوقت تراخت تعبئتهم وضعفت حماستهم وأخذتهم شواغل أخرى غير تلك التي جمعت بينهم ويستطرد بن غوريون قائلاً، تبعاً للوثائق الصهيونية المفرج عنها من الأرشيف الصهيوني: «هذه الأحوال كلها تساعدنا على حرب استنزاف متواصلة ونشيطة». وفي الوقت نفسه فإن «سقوطهم (العرب) من الأعياء سوف يتولى تحييد معظم أسباب قوتهم سواء كانت مالية أو سياسية أو معنوية». ويعلن بن غوريون أن «السقوط من الإعياء لا يكون لمجرد الإرهاق المادي، ولكنه في هذه الحالة الإرهاق المعنوي، وهو أقرب وسيلة إلى فقدان الثقة وذلك أفضل الأوضاع بالنسبة لنا». تجدر الإشارة إلى أن حرب الإرهاق أو الحرب الإنهاكية فكرة أطلقها الخبراء العسكريون في الأكاديمية الحربية للجيش السوفياتي مقابل ما يراه الألمان من حرب الإفناء وتهدف هذه الحرب إلى التحطيم الاستراتيجي للعدو قبل القيام بالهجوم. الكيان الصهيوني كما هو معروف لم يتقيد بهذه الرؤية البن غورونية. إذ عندما انتصر في حرب 1967، أعلن قادته أنها «الحرب التي أنهت كل الحروب بين العرب و«إسرائيل»، وأن الجيش الصهيوني قد حسم الموقف تماماً لعشرات السنين مع العرب». اللافت للانتباه في الرؤية الصهيونية التي فرضتها متغيرات العصر الهائلة، إن مفهوم الحدود الآمنة الذي شكل أساس العقيدة الصهيونية قد بدأ يفقد مكانته وأهميته لدى الكيان الصهيوني كما يوضحه كلام «دان مريدور» في معهد أبحاث الأمن القومي في محاضرته «العبر المستخلصة من عملية الجرف الصامد» بقوله: «إن التغييرات على صعيد التكنولوجيا قضت على مفهوم الحدود التي لم يعد بوسعها وقف الصواريخ أو الأفكار أو المعلومات وذلك لأسباب عدة. أولها أن التكنولوجية أدت إلى إضعاف الدول، وأظهرت التنظيمات والحركات المسلحة كمصدر للتهديد. وثانيها: أن التكنولوجية غيرت مفهوم الجوار. ففي وقت مضى كان عليك أن تحذر جارك القريب. أما اليوم فإنه بالإمكان مهاجمة الأبراج في منهاتن من تورابورا. فالجوار لم يعد مهماً. وثالثها: أن أعداء الكيان الصهيوني الذين تم بناء الجيش «الإسرائيلي» لمواجهتهم لم يعودوا موجودين تقريباً، وبالتالي فإن السؤال لم يعد هل سيكون على الكيان الصهيوني الحذر حتى لا يلحق الضرر بالبيت، وذلك لأن الحرب أصبحت أساساً في البيت». إذ لم يعد هناك معركة مثل السابق. ويلحق بذلك عامل آخر، أعطاه الجنرال الاحتياط «غيورا آيلاند» رئيس مجلس الأمن القومي سابقاً. أهمية كبيرة وهو مسألة تهافت الرواية الصهيونية تجاه ما يجري في قطاع غزة، حيث هي ذاتها الرواية من ثمانية أعوام

وتهافت الرواية الصهيونية يعود بحسب «غيورا آيلاند» إلى اعتبارين:

1. يعود إلى ما يسميه «الإعلام الداخلي».

2. يعود إلى ما يسميه «تمسكنا بأيديولوجية معينة، إلا أنها منقطعة عن الواقع»

ورحم الله شاعرنا محمود درويش الذي قال: «من يملك الرواية يملك الأرض».

وللتدليل على أهمية صدقية الرواية في تحديد مآل الحرب، يروي «غيورا آيلاند» قصة لقائه مع أحد قادة الفرق العسكرية الفيتنامية في الحرب مع الاحتلال الأمريكي ويوضح له أن النصر الفيتنامي كان يعود إلى امتلاك الفيتناميين للرواية الصحيحة في حين كانت الرواية الأمريكية مزيفة وكاذبة.

خلاصة ذلك أن الحق هو المنتصر دائماً وأبداً، وإن طال الزمن.

في ضوء ما تقدم تبدد الإرادة الصهيونية في القتال في العقود الأخيرة، وبالتحديد منذ اندلاع الانتفاضة الكبرى (1987–1993) قد دخلت في مرحلة من الفوات والتهافت. ليس بسبب ضعف القوة العسكرية، وإنما بسبب صلابة مقاومة الشعب الفلسطيني. فكابوس غزة ما برح يقض مضاجع الصهاينة منذ احتلالها عام 1967. والتعبير الأحلى عن ذلك هو تصريح رئيس الوزراء المقتول اسحق رابين: أنه كان يحلم «أن يستيقظ ذات يوم وقد ابتلع البحر غزة». لكن ما يبدو أن القطاع قد ابتلع الحلم الصهيوني. ثم أسباب عديدة لفشل حرب «الجرف الصامد» على قطاع غزة وتحوله إلى عصف مأكول وبنيان مرصوص. أولى الأسباب وأهمها على الإطلاق هو الإيمان الفلسطيني الذي لا يتزحزح بأن التاريخ يصيغه الشجعان ولا تصنعه القطعان، ووعي الذات وهو توجه إلى شكل من أصعب التوجهات لأنه يجعل من النفس، الذات مقدمة ضرورية للحضور التاريخي الحي والفاعل. وهذا التوجه هو أقرب التوجهات إلى الحقيقة، إذا اتفقنا كما يقول أ. هيكل: أن الحق أقرب الطرق إلى الحقيقة، وإن كان وهو كذلك بالفعل أصعبها وأشدها مشقة. والسبب الثاني هو قطاع غزة في صد وطرد الغزاة. ففي التاريخ القريب، بداية القرن العشرين وخلال فترة الحرب العالمية الأولى، حيث لا تزال الذاكرة طرية، تذكر كيف اضطر نائب الجنرال الإنكليزي اللنبي إلى الوقوف طويلاً على أبواب قطاع غزة بعد أن فشل مراراً في اقتحامها للعبور إلى كامل فلسطين، إلى أن جاء اللنبي واضطر إلى الالتفاف من حول قطاع غزة حتى يمكن قواته من الدخول واحتلال فلسطين. تجدر الإشارة إلى أن اللورد أدموند اللنبي (1861–1936) اتخذ لنفسه لقب لورد (أون مجدو)، نسبة إلى جبل «هار مجدو» المذكور في التوراة، ليضفي على انتصاراته واحتلاله بيت المقدس معنى دينياً مأخوذاً من التوراة، وهو أن انتصاره كان بحسب اعتقاده بعون «إله اليهود الخاص بهم» ضد الجيوش العثمانية التي هي جيوش الشر. وفي مآثر التاريخ الإسلامي، معركة عين جالوت عام 1261، شكلت معركة غزة التي قادها الظاهر بيبرس ضد طلائع قوات المغول المتقدمة صوب مصر. بروفة الانتصار في عين جالوت. ولا غرو في ذلك فالإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يقول: «رب همة أحيت أمة». ومن أسباب الفشل الصهيوني في حرب «الجرف الصامد» نجاح المقاومة الفلسطينية في كسر القواعد المتعارف عليها في الحروب العربية ـ الصهيونية. أي كسر القواعد التي يقاتل وفقها العدو الصهيوني من خلال التخلي عن

الأساليب النمطية في القتال. فقد عرف الكيان الصهيوني في السابق كيف يفرض على الجيوش العربية نتائج عملية حاسمة بواسطة سيطرة سلاح الجو. لكن اليوم فإن قوى المقاومة التي تتبنى منطقاً قتالياً يعتمد «الاختفاء». تجعل من عملية وفعالية قوة النار التي يستخدمها الجيش الصهيوني محدودة، لاسيما مع الفشل الاستخباراتي. ففاعلية قوة النار كما هو معلوم، مشروطة بدرجات كبيرة بالاستخبارات، وبالمستوى العالي من الرصد وهذا لم يتوفر للعدو الصهيوني في حربه الأخيرة على قطاع غزة، لاسيما في مجال (معلومات-أهداف). العوامل المذكورة في تفسير أسباب فشل «الجرف الصامد»، لا تنسينا بالطبع، العامل الأهم وهو الصلابة العقائدية والإيمانية التي يتمتع بها المجاهد الفلسطيني تلك الصلابة والإيمان التي يختصرها قول الصحابي الجليل عبد الله بن رواحة: «ما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحُسنين.... إما ظهور وإما شهادة». لقد عوض البعد العقائدي الإيماني لدى المجاهد كما الشعب الفلسطيني في القطاع الفارق بين القوة العسكرية والعمق الجغرافي للكيان الصهيوني وبين محدودية العمق البشري في القطاع رغم أنه الأكثف في العالم. وهنا نستذكر معركة اليرموك والحوار بين سيدنا خالد بن الوليد رضي الله عنه، وبين أحد جنوده حيث أثار الفارق بين عدد جيش الروم وعدد جيش المسلمين رجلاً من المسلمين، فجاء خالد بن الوليد، وقال له: «يا خالد ما أكثر الروم وأقل المسلمين». فغضب خالد وأجابه «بل قل ما أقل الروم وأكثر المسلمين، إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالهزيمة والخذلان لا بعدد الرجال». الجدير بالذكر أن أساطين الحرب الحديثة قد أعطوا أهمية كبيرة، أيضاً، لدور العوامل المعنوية في كسب الحرب فنابليون بونابارت مؤسس المدرسة العسكرية الحديثة صك القاعدة العسكرية التالية: «إن نسبة القوى المادية إلى القوى المعنوية في المعركة كنسبة 3/1». أما المنظر العسكري الألماني كارل فون كلاوزفيتز فيقول: «إن العوامل المعنوية هي التي تحدد نتيجة المعركة». ويصدق ذلك على قول ثعلب الصحراء البريطاني مونتغمري في مذكراته عن «حرب الصحراء» إذ كان قادة الجيش يعرفون الكثير عن القتال، ولكنهم لم يكونوا يفهمون معنى الحرب. فالمفروض في الجنرالات أن يكسبوا المعارك أما مادتهم الخام فهي الرجال فالمعارك تكسب أولاً بصفة رئيسية في قلوب الرجال وعندما يخرج الأمر من أيدينا يتحول نهائياً إلى الجنود، فإن النصر يعتمد على تدريبهم وعلى شجاعتهم وعلى رفضهم تقبل الهزيمة وعلى ثباتهم وصلابة كفاحهم وعلى تصميمهم على النصر أو الموت». وهناك عامل آخر ربما يكون ذا أهمية كبيرة في تفسير فشل الحرب الصهيونية «الجرف الصامد». رغم محدودية جغرافية قطاع غزة التي لا تتجاوز 365كم2، منها 40% مساحة مكشوفة بلا غطاء لا أبنية ولا أشجار. وهذا العامل يتمثل في إبداع المقاومة على توسيع مسرح الصراع بإضافة بُعد جديد إلى مسرحه وهو البعد الجغرافي عبر شبكات الأنفاق التي غطت مساحة واسعة من القطاع ما وسع مساحته شاقولياً كما أسلفنا، وهذا عنصر هام من عناصر المفاجأة التي قوضت الحسابات الصهيونية فهي لعبت دورها ليس في مواجهة الجيش الصهيوني في داخل قطاع غزة، ولكن أيضاً في نقل بعض الفعاليات العسكرية للمقاومة إلى داخل فلسطين المحتلة عام 1948. ثم تمكن

المجاهدون من جر العدو إلى حرب المدن، إلى مداخل بعض أحياء القطاع كأحياء: الشجاعية والشيخ رضوان والزيتون. فقد كشفت مصادر الجيش الصهيوني عن الصعوبات التي واجهتها قوات الاحتلال من قبل مجموعات المقاومة التي اشتبكت معهم، حيث كان لسرايا القدس دوراً مميزاً في شن الهجمات والاشتباك مع جنود الاحتلال من مسافة «صفر» كما حدث في بيت حانون، حيث تصدت السرايا لدبابات العدو التي توغلت في بيت حانون وقتلت الجنود «الإسرائيليين» واستولت على رشاش من طراز 500ملم وتم عرض صور الرشاش في وسائل الإعلام. إضافة إلى قيام مجموعة من كتائب القسام بخطف الجندي الصهيوني «هدار غولدن» أثناء الاشتباك مع الوحدات الخاصة للاحتلال شرق رفح، حيث قتلت الكتائب جنديين من العدو واستشهد لهم مجاهد واحد. وكذلك دخل مجاهدوا القسام إلى موقع عسكري في «ناحال عوز» وقتلوا ما فيه من الجنود، كما دخلوا إلى موقع «زيكيم» العسكري واشتبكوا مع الجنود ودمروا دبابة معادية. كما أرسلوا طائرة استطلاع تحوم في أجواء عسقلان وأسدود، واستطاعت مجموعات سرايا القدس أن تفجر عدد من الدبابات «الإسرائيلية» بالعبوات الناسفة التي زرعها المجاهدون في طريق الدبابات المعادية التي تقدمت على محاور القتال شرق بيت حانون. وبناء على معلومات استخبارية ورصد وتصنت على شبكة العدو اللاسلكية استهدفت سرايا القدس موكب رئيس أركان الجيش الصهيوني «بني غانتس» بوابل غزير من قذائف الهاون الموجهة عندما كان يزور إحدى مستعمرات العدو المحيطة بقطاع غزة، كما استهدفت جنود الاحتلال الذين توغلوا في قطاع غزة لمسافة 1كم في منطقة مكشوفة أمام هاونات المقاومة، وقد اعترف العدو بقتل العديد من جنوده بسبب تساقط قذائف الهاون عليهم. وعلى الرغم من كون هذا النمط من أصعب وأعقد الحروب وأكثرها إجهاداً وإنهاكاً للطرفين، إلا أن المقاومين تمكنوا بفضل إحكام بنيتهم بدقة عالية، والتمتع بالتسلح الجيد من إثخان العدو حيث استطاعت وحدة القنص في سرايا القدس أن توقع العديد من جنود العدو قتلى من خلال مهارة رجالها في استخدام القناصات. إضافة بالطبع إلى التنسيق بين مختلف الوسائط القتالية المتوافرة بين أيدي مجاهديها، ولاسيما وحدة المدفعية التي دكت تجمعات الجنود الصهاينة وآلياتهم بمدافع الهاون المتوفرة لدى السرايا. وقد تمكنت الوحدة الصاروخية من خلال الرشقات الصاروخية الكثيفة من تقليل فعالية القبة الحديدية مما أفسح المجال أمام وصول العديد من الصواريخ إلى عمق أعماق فلسطين المحتلة عام 1948، إذ وصلت إلى أقصى الشمال الفلسطيني وهذا فعل غير مسبوق في تاريخ الصراع مع الكيان الصهيوني. بيد أن أسس عامل الانتصار الفلسطيني كان بلا شك الالتفاف الشعبي الفلسطيني حول المجاهدين وتأمين شبكة الدعم المعنوي والأخلاقي والمادي لهم. وللتدليل على ذلك نشير إلى ما جاء في استطلاع رأي لأهالي قطاع غزة ونشرته محطة العربية الحدث يوم 2014/9/30، أن 48% من أهالي القطاع المستطلعة آراؤهم يؤيدون إطلاق الصواريخ من المناطق المدنية، وأن 80% منهم يؤيدون إطلاق الصواريخ على الكيان الصهيوني. وذلك على الرغم من اعتماد العدو الصهيوني على النظرية الخبيثة التي تقوم على قتل المدنيين وتدمير بيوتهم. وقد نادى بهذه النظرية الفاشية الجنرال الإيطالي الطيار (جوليود

هيوت) عام 1921 وملخصها: «نستطيع أن ننتصر في المعارك دون مقابلة جيش لجيش عن طريق القصف الاستراتيجي للتجمعات وقصف السكان وقصف الناس، حتى نؤثر على معنويات الناس بحيث عندما تبدأ بهم الخسائر يبدؤون بالضجر فيؤثر على المقاتلين. أي أن القصف الجوي يقود إلى انهيار معنويات الناس وهذا بدوره يؤثر على المقاتلين مما يدفعهم إلى الاستسلام». إضافة إلى هذه النظرية فقد أتحفنا العقل العسكري الأمريكي بنظرية أخرى تقول: إن هدف مكافحة التمرد أي هدف الحرب على قوى المقاومة هو المجتمع المدني الأهلي ككل والنسيج الاجتماعي للحياة اليومية بينما يستهدف القصف الجوي التقليدي المعروف بأنه غير فعال الجسور والمصانع ومراكز القيادة يستهدف مكافحة التمرد وفق مصطلح الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو، المستوى الشعري الدقيق من العلاقات الاجتماعية الحميمية بين الناس وقدرتهم على التعاون ونسيج التضامن المعيش. بعبارة أخرى الروابط التي تشكل أواصر المجتمع.

فالحرب التقليدية تحاول أن تتحكم بالأرض وتحطم الجيش المعارض لكن مكافحة التمرد تحاول أن تتحكم في المجتمع لذا فهي «تتمركز حول السكان». في تمرد ما (ثورة أو مقاومة) تمتلك القوة العسكرية ـ الدولة أو القوة المحتلة ـ التحكم بفضاء المعركة لكنها لا تمتلك التحكم بالسكان. مهمة مكافحة التمرد (المقاومة) هي عزل رجال (المقاومة) وتحطيمهم عن طريق كسر التحكم بالسكان من خلال العنف والوسائل النفسية والعقائدية الأخرى. لكن مردود القصف الجوي والبري والبحري الصهيوني على قطاع غزة لم يطابق هذه الصورة بل جاء ليدحضها. وبدا أن حال الشعب الفلسطيني في مواجهة الحرب الصهيونية، كان كحال الشعب البريطاني في مواجهة الغارات الجوية النازية على لندن خلال الحرب العالمية الثانية، حيث أصبحت الأواصر الاجتماعية والتضامن بين أفراد الشعب أقوى مما هي عليه في غير أوقات الحرب. وهو حال لخصها قول وزير العمل البريطاني في حكومة تشرشل خلال الحرب أرنست بيفن: «عندما تنخرط أمة في أزمة كبيرة من المحتم أن تصبح تشاركية».

وهناك عامل آخر يجدر بنا عدم إغفاله في تفسير الفشل على الجانب الصهيوني ويكمن أساساً في سوء تقدير الكيان الصهيوني لإرادة الشعب الفلسطيني ومجاهديه على الصمود والمقاومة وبراعتهم القتالية، وإدارتهم الرشيدة لعوامل القوة بين أيديهم وقصور العقل الصهيوني في توفير الاستجابة الملائمة في الوقت الملائم في الرد على التحديات الجديدة رغم استغراقه في البحث عن هذه التحديات التي حدد مجالها في ضرورة التصدي للساحات التي تكثر فيها الكيانات السياسية والعسكرية والتي تفتقر إلى سلطة مركزية قوية وما يسند عليه ذلك في تغيير في طبيعة الحروب والتحديات الاستراتيجية، فضلاً عن الفجوة بين قدرات المخابرات الصهيونية المطلوبة لاتخاذ القرارات الاستراتيجية من قبل المقاومين السياسي والعسكري، وبين القدرات العملية لأجهزة المخابرات المطلوبة للتشكيلات القتالية، حيث تشكل المخابرات عنصر هام ومصيري في إطار تشغيل قوة نيران الجيش الصهيوني ومقال على ذلك «استخبارات تحديد الأهداف» والتأثير على الرأي العام، والتأثير على جمهور الهدف (العدو) بواسطة المعلومات، وإحباط جهود المقاومة من خلال الكشف وتقديم تقارير عن الجهود السرية للعدو، بهدف

إحباطها وغير ذلك. فالمخابرات دائماً ما تضاعف القوة كما تزداد أهميتها مع كل ثورة من الثورات العسكرية. وقد سبق للصهاينة أن أقروا في الدراسة الصادرة عن معهد أبحاث الأمن القومي «الإسرائيلي» عام 2009 «المخابرات إلى أين؟» عن ضعف البنية التنظيمية لأجهزة مخابراتهم وعدم ملاءمتهما لمهام التصدي لتحديات الأمن المختلفة التي تواجه الكيان الصهيوني. الجدير بالذكر أن المخابرات الصهيونية تعتمد في جمعها للمعلومات على ما نسبته 60–65% على وسائل الإعلام المتنوعة وحوالي 25% على الأقمار الصناعية وأجهزة الاتصالات المختلفة وما بين 5–10% عن طريق الاتصال المباشر وما بين 2–4% من العملاء والجواسيس وتحتوي هذه النسبة الضئيلة على أهم المعلومات الاستخبارية. وفي هذا السياق نشير إلى قول نابليون بونابارت الشهير «الجاسوس في المكان الصحيح يعادل ألف جندي في ساحة القتال». وهناك عامل إضافي أتاحته ثورة الاتصالات يسميه «دان مريدور» «عكس القوة» وملخصه: إذا كنت تبدو قوياً جداً وتعمل باستخدام الكثير من القوة، وبشكل خاص بين السكان المدنيين، ولفترة زمنية طويلة، فإنك تتحول لتصبح حقيراً، على الرغم من أنك لست كذلك، فأنت تظهر وأنت تستخدم القوة المفرطة ضد المدنيين. وإذا كنت ضعيفاً على الرغم من أنك أنت المتهم بكل شيء، فإنك ستصبح مع مرور الوقت المسكين، أو الضحية التي يريد الكل تقديم العون لك. وبإسقاط ذلك على حرب «الجرف الصامد» بأن الكيان الصهيوني قد خسر معركة وكسب الرأي العام العالمي، حيث احتل لديه موقع الحقير، المجرم، وهو لا يستطيع أن يتحمل فداحة هذه الخسارة لأنها تودي بصورة الكيان الصهيوني الذي طالما حاول تسويقها للرأي العام، صورة «داوود المسكين» كناية عن الصهيوني في مواجهة جاليوت العملاق العربي. يقول دان مريدور في كلمته أمام معهد الأبحاث القومي حول ذلك: «الحرب تدور طيلة الوقت في مكانين وليس في مكان واحد: في الميدان، ميدان القتال، وعلى شاشة التلفزيون. وإذا ما خسرت الشاشة فإنك لابد ستبدو في وضع غير جيد».

قصارى القول: لقد أجهضت المقاومة الفلسطينية في قطاع غزة أهداف حرب «الجرف الصامد» وحولت خطط القتال الصهيونية إلى خطط للقتل والتدمير فقط. وما يؤكد حقيقة ذلك هي الأرقام، والأرقام الصهيونية الرسمية كما وردت على لسان وزير الحرب «موشيه يعالون»: «في نهاية المطاف تم في نهاية عملية «الجرف الصامد» ضرب ما يزيد على سبعة آلاف هدف.. وغالبية الأهداف تم ضربها من الجو، إذ تم ضرب أكثر من 5000 هدف من الجو وكذلك تم ضرب أكثر من 1000 هدف من البر بنيران دقيقة». والسؤال الذي تثيره هذه الأرقام، هل هناك في كل قطاع غزة أهداف عسكرية وسياسية وحتى اقتصادية بهذا الكم، وبهذا الحجم؟ الجواب هو بالطبع لا، وبالتالي فإن القتل والتدمير هو هدف ومخرج «الجرف الصامد» الصهيوني. وقد أدت هذه الحرب الصهيونية الغاشمة إلى استشهاد ما يزيد عن 1500 شهيد فلسطيني معظمهم من المدنيين، وإصابة ما يقارب الـ11 ألف جريح، وتشريد نصف مليون مواطن من منازلهم وتدمير مدلولات هذه الأرقام من خلال الخلط بين الشهداء من المجاهدين والشهداء من المدنيين، حيث تتحدث المصادر الصهيونية عن سقوط أكثر من ألفي شهيد فلسطيني، يدعي «موشيه

يعلون» أن غالبيتهم «وفق رؤيته (الصهيونية) هم مخربون».

كما قوضت المقاومة الفلسطينية الرأسمالية الأكبر للكيان الصهيوني، وهو هيبة «دولته» وهيبة الجيش الصهيوني. وهذا بلا شك استمرار لمسار نشأ بعد حرب 1973، حيث أخذت الأمور تتغير، ولكن الصورة بدأت تتضح خلال أعوام الثمانينات من القرن العشرين، إذ تآكلت مكانة الجيش الصهيوني كمؤسسة أمنية تواجه التهديدات العسكرية بصورة رئيسية. هل بتنا في ضوء تجربة «البنيان المرصوص» و«العصف المأكول»، بإيزاء إرهاصات مدرسة عسكرية فلسطينية؟ بما تعنية من وجود منهاج معين للحرب، وأسلوب يتميز بحسن التخطيط والإعداد والمناورة والقيادة والتدريب وممارسة فنون القتال على أسس عملية صحيحة تحقق النصر وتؤكد كما تعنى على خلق قيادات ناجحة في القيادة تتميز بالخبرة والقدرة والكفاءة وصفات أخرى يأتي في المقام الأول منها: الشجاعة والجرأة وحسن التصرف، وتعتبر معاركها من المعارك الناجحة فناً وقيادة، فتعكف الأجيال المتعاقبة على دراستها ونهمها وإدراك نواحي النجاح والتميز فيها لاسيما أن النصر كمفهوم وواقع يفلت من القبضة الصهيونية كما العقل الصهيوني، مثل مفاهيم: الردع، الإنذار، الحسم، بحيث باتت الحروب الصهيونية تفتقر إلى الرؤية المؤسسية الواضحة القواعد والمعايير والخطط لصالح الحروب التجريبية عسى أن يستنبط منها في مرحلة لاحقة نظرية قتال جديدة غير تلك المتهالكة، تستطيع الإجابة على التساؤلات الصهيونية: ما هو تعريف النصر؟ وما هو الحسم في مواجهات من هذا النوع التي يواجهها الكيان الصهيوني في السنوات الأخيرة؟ وكيف يمكن إعادة انتاج قوة الردع من جديد؟ ربما الحقيقة الوحيدة التي يحاول الكيان الصهيوني تسويقها من خلال تجارب حروبه من «السور الواقي إلى «الجرف الصامد»» هو قدرة التجمع الاستيطاني الصهيوني على تحمل حروب الاستنزاف. يقول «موشيه يعلون» في هذا الصدد: «إن ما يخضع للاختيار هو قدرة المجتمع على الصمود. فهل يستطيع المجتمع الصمود في حالة الاستنزاف وهل في مستطاعه أن يمتص الضربات، أم تراه ينكسر أمام ذلك؟». ويجيب على تساؤلاته قائلاً: «أنا أعتقد اليوم (بعد «الجرف الصامد») أن حسن نصر الله لم يعد بوسعه أن يتحدث عن خيوط العنكبوت». ويوضح حقائق الأمر بالإشارة إلى أن «المجتمع الإسرائيلي» منذ عام 2000 (سنة انطلاقة انتفاضة الأقصى والانسحاب الصهيوني من جنوب لبنان) حتى عدوان (الجرف الصامد) أثبت قدرة كبيرة على الصمود، ويواصل يعلون حديثه في هذا السياق «إذا كان هناك من يعتقد أنه يستطيع عن طريق الاستنزاف أن يعكر حياتنا، ويشكك بفكرة (الوطن اليهود) كملجأ آمن لليهود، فأنا أعتقد أنه فشل»، وعليه فإن كل علامات الاستفهام التي وضعت على مدى العقد والنصف الماضيين، أي منذ عملية السور الواقي تلك، قد تحولت إلى علامات تعجب لكل جيراننا، وبالتالي صار هؤلاء «يدركون أنه يوجد هنا مجتمع قوي يعرف كيف يقف صامداً وقوياً، ويعرف كيف يرد الحرب بحرب لا هوادة فيها، ويعرف كيف يقدم التضحيات من أجل الدفاع عن الآباء والعائلة، ويختم يعلون قائلاً: «لقد أثبت مجتمعنا قدرة رائعة على الصمود». بدوره رأى البروفيسور الصهيوني «عوزي روبين» من مركز بيغن-السادات للدراسات الاستراتيجية، أن القبة الحديدية، هي العمود الفقري لقدرة «المجتمع الإسرائيلي على

الصمود، لأن قلب الدولة كان محمياً». مما لاشك فيه أن كلام وزير الحرب الصهيوني في تقييمه لنتائج حرب «الجرف الصامد». تغيب عنه الحقيقة الأساسية وهي أن صمود المقاومة الفلسطينية في قطاع غزة في وجه آلة الحرب الصهيونية، قد نزع المهابة من الجيش الصهيوني، وكذلك هيبة الكيان الصهيوني ككل وجعله في حالة توتر واستنفار دائمين، وصار الكيان الصهيوني بدلاً من أن يخوض الحرب معركة كل عشر سنوات، مضطراً أن يخوضها كل عامين على الأكثر. السبب بكل وضوح أن حربه مع الشعب الفلسطيني ليست عادية بالمعنيين السياسي والعسكري. حيث ينطبق عليها وصف أحد الشخصيات للحرب الفيتنامية من انها «حرب تخريب وحرب عصابات وحرب شعارات سياسية. العدو في كل مكان. والحرب طويلة. إنها كوعاء ماء ينقط فوق طاولة. كلما مسحت الطاولة نزلت نقطة ماء جديدة. فأنت لا تعرف متى سينقطع تقاطر الماء ما دمت لا تعرف ما إذا كان الوعاء فارغاً أم لا». وهذا هي الحرب في فلسطين اليوم. وهذا بلا ريب يصب في خانة الانهاك المعنوي والنفسي للكيان الصهيوني. تجدر الإشارة أن الانهاك الذي تعرضت له الغزوات الصليبية الذي كان تقوم به طائفة العلم والجهاد هو الذي حقق النصر في المعارك الكبرى، لا المعارك الكبرى ذاتها، بل لم تكن هذه المعارك الكبرى كحطين إلا محصلة لمعارك صغيرة لا تكاد تذكر في التاريخ لكنها كانت الأرقام الأولى لتشكيل النصر الكبير النهائي.

بمعنى أن السؤال المطروح عن بزوغ إرهاصات مدرسة عسكرية فلسطينية الأقل في نمط الحروب المنخفضة الشدة أو غير التقليدية يحتاج إلى المزيد من البحث والتقويم لتحديد وإنضاج معالمها، وبلورة منطلقاتها وركائزها عن تفاصيل مسار المعارك واستراتيجيتها وتكتيكاتها. لكن التساؤل يمتلك مشروعية تستمد من النجاحات العسكرية الفلسطينية في إحباط وإجهاض الحروب الصهيونية من الرصاص المسكوب إلى «الجرف الصامد». وتزداد أكثر مشروعية هذا السؤال لدى التمعن في مقولة المؤرخ الاستراتيجي الصهيوني «مارتن فان كريفيليد»: «إن مستقبل «إسرائيل» يبدو قاتماً، ومن الغريب أن يقال ذلك عن دولة تملك على الورق أحد أكبر الجيوش قوة على وجه الأرض، لكن قوة «إسرائيل» هذه هي التي تعمل ضدها. نعم سوف يراق دم فلسطيني أكثر من الدم اليهودي، لكن على المدى البعيد لن تجد «إسرائيل» مخرجاً، فإذا تواصلت الانتفاضة (المقاومة) فستهزم «إسرائيل» كما سبق أن هزم الأمريكان في فيتنام والسوفيات في أفغانستان». الكيان الصهيوني وليد القوة والحراب، صار بفعل استمرار الشعب الفلسطيني في مقاومته يدرك معنى قول نابليون: «من الممكن أن نفعل أي شيء بالحرب إلا أن نجلس عليها». وهذا بلا شك هو دور الحروب على قطاع غزة. فهل يستطيع الكيان الصهيوني أن يمارس الجلوس على قوة حرابه إلى ما لا نهاية؟.

ربما يعترض بعضنا على استعجالنا في الحديث عن إرهاصات مدرسة عسكرية فلسطينية، حيث إن كان بعضنا يمتلك مشروعية الاعتراض، فإننا نواجه بمقولة «البقعة العمياء». وهي مقولة تشير إلى أن ثمة جوانب من الواقع قد تعجز عن رؤيتها ولا مفر من أن يتساءل كل منا، بعد عدد من السنوات «كيف أمكنني ألا أرى ذلك». هناك «بقعة عمياء» قد يتعذر علينا للغاية رؤيتها اليوم، وسوف تبدو بديهية بعد مرور بعض

الوقت. وهذا هو مصدر مغامراتنا في الحديث عن إرهاصات مدرسة عسكرية فلسطينية.

في قصيدة لشاعر الهند الكبير طاغور يتساءل أحدهم: «ماذا يمكن أن يحدث عندما تغيب الشمس؟ وفي الساعة التي يحل فيها الظلام، يبقى الجميع صامتين، إلى أن يقول مصباح خزفي صغير بهدوء: (أتراني أنني سأفعل كل ما في استطاعتي).

إنه صوت الفعل الفلسطيني المقاوم في زمن الغياب أو الغيبوبة العربية.

استخلاصات:

1. منذ أن استعمر الاسرائيلي الارض المقدسة أصبحت هذه الارض يحكمها قانون واحد هو قانون الصراع.
2. إن الصراع في فلسطين يتسع ويكبر ويزداد ولن يتوقف او يتلاشى أو ينتهي.
3. إن حل عقدة الصراع في فلسطين لن يتم بتسوية أو اتفاقيات بل يحل بالحسم لمصلحة الحق.
4. ان الصراع في فلسطين لن يحل بالضربة القاضية .. بل من خلال حرب طويلة الامد وعدة جولات من الصراع .
5. في معارك جولات الصراع .. سوف تكون كل جولة أشرس واقوى واكثر دموية من الجولة السابقة .. حتى نصل إلى الجولة النهائية في الصراع.
6. ان جولات الصراع في فلسطين ستعيد ترتيب الجغرافيا العربية وتعلن ميلاد جيل عربي جديد ...جيل الامة .. جيل وعد الاخرة.
7. في جولات الصراع القادمة ستدمر صواريخ المقاومة أسطورة الاحتلال.

ملحق 1

للأهمية نورد نص ما قاله «غيورا آيلاند» في ندوة (أبحاث الأمن القومي) «الهدف الاستراتيجي «الجرف الصامد»» يقول: «قبل عامين كنت في زيارة إلى فيتنام وقد ألتقيت هناك مع جنرال فيتنامي كبير في السن، وكان قائد فرقة خلال الحرب التي خاضوها ضد الأمريكيين في بداية التسعينيات من القرن الماضي. وقد كنت اتناول العشاء معه وقال لي تعال أروي لك لماذا انتصرنا على الأمريكيين. لقد انتصرنا على الأمريكيين لسبب واحد فقط وهو أن الأمريكيين قد رووا الرواية غير الصحيحة، ونحن روينا الرواية الصحيحة. فماذا كانت الرواية الأمريكية؟ الأمريكيون قالوا إن هناك دولة في شمال فيتنام وإنه يجري دعمها من قبل دولتين شيوعيتين وهما الاتحاد السوفييتي والصين، وهي تشكل عملياً الجبهة الشيوعية التي تهدد كل منطقة جنوب شرق آسيا، لذلك إذا كنا نحن (الولايات المتحدة) نريد أن نوقف الشيوعية التي توجد لها طموحات للتمدد في كل العالم فإن علينا أن نفعل ذلك بشكل مبكر جداً، ما أمكننا ذلك، وبعيداً عنا ما أمكن ذلك أيضاً. والطريق الصحيح هو أن نفعل ذلك في نقطة الالتقاء بين جنوب فيتنام وشمال فيتنام، ولذلك يجب أن نحارب هناك. وقال لي هذا الجنرال: ماهي الشيوعية؟ بماذا تهمني الشيوعية؟ هل تعتقد أنني قد حاربت من أجل الشيوعية؟ وهل كان الملايين مستعدين للموت من أجل الشيوعية؟ ما هذا الهراء؟ نحن دولة فيتنام دولة موجودة منذ مئات السنين، وحاربنا ضد اليابانيين وهزمناهم، وجاء الأمريكيون وقالو لنا: أنتم لن تكونوا دولة واحدة هي فيتنام، بل ستكونون في دولتين. دولة واحدة في الجنوب تسيطر عليها الولايات المتحدة، وهناك دولة في الشمال. وقالوا لنا عليكم أن تعيشوا في دولتين وليس في دولة واحدة. وليس كدولتين عاديتين بل يجب على هاتين الدولتين أن تقاتل إحداهما الأخرى. لماذا يجب أن نحارب بعضنا؟ فنحن أمة واحدة، وقد حاربنا من أجل شيء واحد، من أجل أن تكون فيتنام دولة واحدة. وبطبيعة الحال كان 100% من سكان الشمال معنا، و99% من سكان الجنوب كانوا معنا وذلك لأننا كنا نحارب من أجل المصلحة الوطنية الموحدة لنا جميعاً. الآن، لم يكن الأمر مجرد أن هذه الحرب كانت حرباً عادلة يمكن أن نحشد من أجلها كل الموارد الوطنية وكل التضحيات المطلوبة. وهذه ليست روح (مزاج) يتفرد بها الشعب الفيتنامي، والنموذج الأفضل لذلك هو الولايات المتحدة. فقبل 150 سنة، عندما انفصل الجنوب عن الولايات المتحدة قرر الرئيس الأمريكي أن يشن حرباً، الحرب الأهلية، التي سقط فيها ضحايا أكثر بكثير من أية حرب أخرى خاضها الأمريكيون وذلك فقط من أجل الحفاظ على وحدة الدولة. فلماذا لم يفهموا أن هذه القصة التي يعرفها كل الأمريكيين هي نفسها قصتنا».

ملحق 2

لقد سقط في الانتفاضة الأولى 1376 شهيداً. وبلغ عدد شهداء انتفاضة الاقصى 6600 شهيد منهم 6114 شهيداً من الذكور و484 شهيدة من الاناث وعدد الشهداء الذين ينتسبون للفصائل الإسلامية والوطنية بلغ 3973 شهيداً، منهم 95 امرأة و292 طفلاً. وبلغ عدد الفصائل التي قدمت الشهداء في انتفاضة الاقصى 14 فصيلاً، فيما بلغ عدد الجرحى 4976 جريحاً. وحصلت فتح على المرتبة الأولى بمختلف أجنحتها العسكرية برصيد 1437 شهيداً، بينهم 30 امرأة و28 طفلاً، وحصلت حماس على المرتبة الثانية برصيد 1410 شهداء، بينهم 34 امرأة و96 طفلاً، وحصلت الجهاد الاسلامي على المرتبة الثالثة برصيد 766 شهيداً، بينهم 24 امرأة و53 طفلاً، وحصل تنظيم لجان المقاومة الشعبية برصيد 151 شهيداً، بينهم 3 نساء و3 أطفال، وحصلت الجبهة الشعبية على المرتبة الخامسة برصيد 95 شهيداً، بينهم امرأتان و5 أطفال. وحصلت الجبهة الديمقراطية على المرتبة السادسة برصيد 72 شهيداً، بينهم امرأة و4 أطفال. ثم جاء حزب فدا برصيد 7 شهداء. والنضال الشعبي برصيد 8 شهداء بينهم 3 أطفال، وحزب الشعب الفلسطيني برصيد 3 شهداء، وفتح الانتفاضة برصيد 3 شهداء، والقيادة العامة برصيد شهيدين، وجبهة التحرير الفلسطيني شهيد واحد، وجيش الإسلام 14 شهيداً، وكتائب أحرار الجليل 4 شهداء.

أما على صعيد العمليات الاستشهادية التي تمت فقد بلغ عددها 173 نفذها 159 رجلاً و14 امرأة، ومازالت جثامينهم في مقابر الأرقام. وقد حصلت على المرتبة الأولى حركة حماس في تنفيذ العمليات الفدائية برصيد 69 رجلاً و3 نساء. وحصلت حركة الجهاد الاسلامي على المرتبة الثانية برصيد 44 رجلاً و4 نساء. وحصلت حركة فتح على المرتبة الثالثة برصيد 35 رجلاً و7 نساء. وجاءت الجبهة الشعبية في المرتبة الرابعة برصيد 10 رجال أما في المرتبة الأخيرة فجاء تنظيم لجان المقاومة برصيد رجل واحد.

مركز اللغات والترجمة

مركز تخصصي تابع لحركة الجهاد الإسلامي في فلسطين، يُعنى بمتابعة الشأن «الإسرائيلي» وما يتعلق بالصراع العربي ـ الصهيوني، من خلال رصد المؤسسات الفكرية والثقافية ومراكز التخطيط العلمي والبحث الأكاديمي في الكيان الصهيوني، ويعمل على ترجمة الدراسات البحثية والوثائق التي تصدر عن هذه المؤسسات، والخطط والقرارات ذات الطابع الاستراتيجي التي تنبثق عن المؤتمرات ومراكز صناعة القرار «الإسرائيلي»، إضافة إلى تشكيل قاعدة بيانات شاملة تحتوي على معلومات هامة عن مختلف نواحي الحياة «الإسرائيلية» السياسية والأمنية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وكذلك الإسهام في تشكيل فهم سليم حول طبيعة المشروع الصهيوني في إطار الصراع الدائر معه، بالاستناد على أسس معرفية صحيحة من خلال القراءات النقدية للأبحاث المترجمة والندوات الحوارية والفعاليات التي يقيمها المركز.

www.tlc-aldirasat.com

Tlc-aldirasat@hotmail.com

www.facebook.com/tlcaldirasat

https://twitter.com/TlcAldirasat